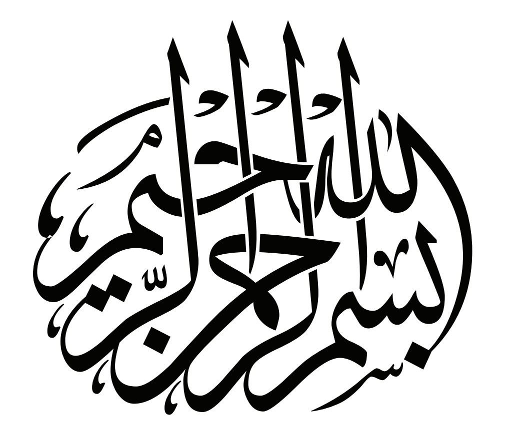
آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ
وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٨م

آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ
وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه

مَنْهَجيَّةٌ وقَواعِدُ
للطَّالِب مِن الْبِدايَةِ حَتَّى سُلوكِ الجادَّةِ
تُوضِّحُ لَهُ أَسْرَارَ الْعِلْمِ وطُرُقَ تَحْصِيلِه

إعداد
أحمد بن ناصر الطيار


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

مكانةُ العلم الشرعيّ وأهميَّتُه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **أما بعد**:

فمن المعلوم ما للعلم الشرعي من مكانة عظيمة، ومنزلة شريفة، يكفي في شرفها ما قاله ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ، كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**». رواه أحمد والترمذي وغيرهما، وصححه الألباني وغيره.

قال ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلماء ورثة الأنبياء، وحسبك هذه الدرجة مجدًا وفخرًا، وبهذه الرتبة شرفًا وذكرًا، فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة، فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة». اهـ[(١)].

والعلماء هم سفراء رب العالمين، ومنزلة سفير البشر كبيرة، فكيف بسفير رب البشر.

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: ص٢٠.

وهم الموقعون عن الله تعالى.

والعلم أمانة عظيمة، ومسؤولية جليلة كريمة، تُبلَّغ بها رسالةُ الله، وتُقَامُ بها الحجة على عباد الله، فكم هَدى الله ﷻ بالعلم من أهل الضلالات، وكم أخرج به من الظلمات.

وقد امتنّ الله ﷻ على نبيِّه ﷺ بالعلم، وشرّفه وكرّمه به، فكان به إمامَ العلماء الربّانيّين وقدوتهم وهاديهم، صلوات الله وسلامه عليه، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

العلم بصيرة؛ لأن العالم يُبصِر به الحق فيتبعه، ويُبصِر به الباطل فيجتنبه. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

العلم بيّنةٌ تنكشف بها الحقائق، ويَخْرسُ عند دلائلها كل متكلم وناطق. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [الأنعام: ٥٧].

العلم فاتحة كل خير، وأساس كل طاعة وبر، فلا طاعة إلا بالعلم، وكلما أطاع العبدُ ربَّه على بصيرة وعِلم، كانت طاعته أرجى للقبول من الله ﷻ..

الْعِلْمُ حَاكِمٌ لَا مَحْكُومٌ عَلَيْهِ، قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «بِمَعْنَى كَوْنِهِ مُفِيدًا لِعَمَلٍ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِمَّا يَلِيقُ بِهِ؛ فَلِذَلِكَ انْحَصَرَتْ عُلُومُ الشَّرِيعَةِ فِيمَا يُفِيدُ الْعَمَلَ، أَوْ يُصَوِّبُ نَحْوَهُ، لَا زَائِدَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تَجِدُ فِي الْعَمَلِ أَبَدًا مَا هُوَ حَاكِمٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ، وَإِلَّا انْقَلَبَ كَوْنُهَا حَاكِمَةً إِلَى كَوْنِهَا مَحْكُومًا عَلَيْهَا، وَهَكَذَا سَائِرُ مَا يُعَدُّ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ».اهـ(١).

(١) الموافقات: ١/ ١١٠.

وفي هذا أعظم ردّ على من يقول: لا يُفتي في الجهاد إلا المجاهدون لا القاعدون!

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «العالمُ يَعرف الجاهل؛ لأنه كان جاهلًا، والجاهلُ لا يَعرف العالم؛ لأنه لم يكن عالمًا».اهـ[(١)].

العلم كالغيث للقلوب، يُحْيي الله به الأفئدة بعد موتها، ويوقظها بعد غفلتها، وينبهها من رقدتها.

ووالله لو يعلم الناس مدى اللذةِ والرفعةِ والشرفِ الذي سينالونه إنْ تعلموا العلم من أصوله وصبروا عليه: لتَزَاحَمُوا الرُّكَبَ عِنْدَ العُلَمَاء، وأَدَامُوا النَّظَرَ والبحثَ في كتبِ الفضلاء.

رأى معاوية الناس يسألون ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن المناسك وهو يفتيهم فقال: هذا والله الشرف[(٢)].

وهذا عطاء بن أبي رباحٍ يدخل على أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك فيعظُه وينصحه، فلمّا نَهَضَ ووَلَّى قَالَ سُلَيْمَانُ: هَذَا وَاللهِ الشَّرَفُ لَا شَرَفُنَا![(٣)]

ولكنَّ العلمَ الشّرعيّ النافعَ عزيزٌ وشريفٌ لا يُوفَّقُ له إلا مَن أراد الله تشريفَه ورفعَتَه في الدنيا والآخرة، وصدق الله تعالى: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» [المجادلة: ١١].

وصدق رسولُه ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[(٤)].

قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «مَفْهُوم الْحَدِيث أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَفَقَّه فِي الدِّين،

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٣٤.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٠/ ١١٦.
(٣) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، للفاكهي (المتوفى: ٢٧٢هـ): (١٦٣١).
(٤) البخاري: (٧١)، ومسلم: (١٠٣٧).

أَيْ: يَتَعَلَّم قَوَاعِد الْإِسْلَام وَمَا يَتَّصِل بِهَا مِنْ الْفُرُوع: فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْر». اهـ[(١)].

وقال ابن بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا يدل على أن الذي لا يتفقه في الدين ما أراد الله به خيرًا نسأل الله العافية». اهـ[(٢)].

قال أبو هلال العسكري: «فإذا كنت أيها الأخ ترغبُ في سُمُو القدْرِ، ونَباهةِ الذِكْرِ، وارتفاعِ المنزلةِ بين الخلقِ، وتَلْتَمِسُ عِزًا لا تثلمه الليالِيَ والأيامُ، ولا تتحيّفه الدهورُ والأعوامُ، وهَيْبَةً بغيرِ سُلطانٍ، وغِنىً بلا مالٍ، ومَنَعَةً بغيرِ سلاحٍ، وعلاءً من غيرِ عَشيرةٍ، وأعْوانًا بغيرِ أجرٍ، وجُنْدًا بلا دِيوانٍ وفَرْض، فعليك بالعلمِ فاطلبهُ في مظانِّه، تأتِكَ المنافِعُ عفوًا، وتلق ما يُعْتَمَدُ منها صَفْوًا، واجتهدْ في تحصيلهِ لياليَ قلائلَ، ثم تَذَوّقْ حلاوةَ الكرامةِ مدةَ عُمُرِكِ، وتَمَتّعْ بلذةِ الشرفِ فيه بقيةَ أيامِك، واسْتَبْقِ لنفسك الذِكْرَ به بعد وفاتك». اهـ[(٣)].

والعلماءُ هم الذين يخشون الله حقَّ خشيته، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولم يأمر الله تعالى نبيه أن يزداد من شيءٍ سوى العلم فقال ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْله ﷻ: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وَاضِح الدَّلَالَة فِي فَضْل الْعِلْم؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى لَمْ يَأْمُر نَبِيّه ﷺ بِطَلَبِ الِازْدِيَاد مِنْ شَيْء إِلَّا مِنْ الْعِلْم، وَالْمُرَاد بِالْعِلْمِ الْعِلْم الشَّرْعِيّ الَّذِي يُفِيد مَعْرِفَة مَا يَجِب عَلَى الْمُكَلَّف مِنْ أَمْر عِبَادَاته وَمُعَامَلَاته، وَالْعِلْم بِاللهِ وَصِفَاته، وَمَا يَجِب لَهُ

(١) فتح الباري: ١/ ٢١٧.
(٢) مجموع الفتاوى: ٦/ ٤١.
(٣) الحث على طلب العلم والاجتهاد فيه: ص٤٣.

مِنْ الْقِيَام بِأَمْرِهِ، وَتَنْزِيهه عَنْ النَّقَائِص، وَمَدَار ذَلِكَ عَلَى التَّفْسِير وَالْحَدِيث وَالْفِقْه». اهـ[(١)].

وطلب العلم ونشره من أعظم الأعمال عند الله تعالى، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ قال العلامةُ محمدُ رشيد رضا رحمه الله تعالى: «وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ تَعْمِيمِ الْعِلْمِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِتَعْلِيمِهِ فِي مَوَاطِنِ الْإِقَامَةِ وَتَفْقِيهِ النَّاسِ فِيهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَصْلُحُ بِهِ حَالُهُمْ، وَيَكُونُونَ بِهِ هُدَاةً لِغَيْرِهِمْ، وَأَنَّ الْمُتَخَصِّصِينَ لِهَذَا التَّفَقُّهِ بِهَذِهِ النِّيَّةِ، لَا يَقِلُّونَ فِي الدَّرَجَةِ عِنْدَ اللهِ عَنِ الْمُجَاهِدِينَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ وَالدِّفَاعِ عَنِ الْمِلَّةِ وَالْأُمَّةِ. بَلْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْهُمْ فِي غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الدِّفَاعُ فَرْضًا عَيْنِيًّا، وَالدَّلَائِلُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ». اهـ[(٢)].

بل إنّ تعلُّمَه وتعليمَه بإخلاص وصدق يبلغ بصاحبه درجة الصديقين! قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ وَعَلَّمَهُ لِوَجْهِ اللهِ كَانَ صِدِّيقًا». اهـ[(٣)].

وقد تعلَّم الصحابة الكرام ﷺ من رسول الله ﷺ ثمَّ علَّموا التَّابعينَ، وعلَّم التَّابعون أتباعَ التَّابعين، وحمل هذا العلمَ من كلِّ خَلفٍ عُدُولُه، فنَفَوْا عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ الْمُبطِلين، وتأويل الجاهلين، وما بلغوا ذلك إلا بالصبر والْمُثابرة، والهمَّةِ العالية، والسَّيْر في البلاد،

(١) فتح الباري: ١/ ١٨٧.
(٢) المنار: ١١/ ٦٥ ـ ٦٦.
(٣) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٧١.

وصبرٍ كصبر الجماد، وتحمّل المشاق، وهجرِ الراحة، وكابدوا المشاقَّ الكبيرة، وصارعوا الأهوال العظيمة، ولسانُ حالهم:

دَبَبْتَ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا ... جَهْدَ النُّفُوسِ وَأَلْقَوْا دُونَه الأُزُرَا
فَكَابَدُوا الْمَجْدَ حَتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ ... وَعَانَقَ الْمَجْدَ مَنْ أَوْفَى وَمَنْ صَبَرَا
لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

واعلم أنّ العلم من أعظم أسباب الثبات، فالانتكاسة في العلماء وطلاب العلم نادرةٌ جدًّا بخلاف غيرهم من العباد والصالحين، وذلك أنّ طالب العلم يسير على بصيرةٍ وبيّنة، فلا يتمكن الشيطان من اسْتدراجه بخلاف العاميّ، فقد يجتهد في عملٍ يكون سببَ هلاكه وانتكاستِه.

وطالب العلم يجتنب المعصية خوفًا من الله تعالى، ثم خوفًا من ذهاب علمه، بخلاف غيرهِ فربما اجترأ على المعصية عازمًا على أنْ يتوب بعدها.

والعلم الصحيح يحجز صاحبه عن المعصية والهوى ولا بدّ، قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «قَرَنَ ـ تعالى ـ الْعُلَمَاءَ فِي الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٨].

فَشَهَادَةُ اللهِ تَعَالَى وَفْقَ عِلْمِهِ ظَاهِرَةُ التَّوَافُقِ؛ إِذِ التَّخَالُفُ مُحال، وَشَهَادَةُ الْمَلَائِكَةِ عَلَى وَفْقِ مَا عَلِمُوا صَحِيحَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ مَحْفُوظُونَ مِنَ الْمَعَاصِي، وَأُولُو الْعِلْمِ أَيْضًا كَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ حُفظوا بِالْعِلْمِ».اهـ[(١)].

ثم ذكر رحمه الله تعالى: «أَنَّ الرُّسُوخَ فِي العلم يأبى أَنْ يُخَالِفَهُ

(١) الموافقات: ١/ ٩٢

بِالْأَدِلَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَبِدَلِيلِ التَّجْرِبَةِ الْعَادِيَّةِ؛ لِأَنَّ مَا صَارَ كَالْوَصْفِ الثَّابِتِ لَا يَتَصَرَّفُ صَاحِبُهُ إِلَّا عَلَى وَفْقِهِ اعْتِيَادًا، فَإِنْ تَخَلَّفَ؛ فعلى أحد ثلاثة أَوْجُهٍ:

الْأَوَّلُ: مُجَرَّدُ الْعِنَادِ، فَقَدْ يُخالف فِيهِ مُقْتَضى الطَّبْعِ الْجِبِلِّي؛ فَغَيْرُهُ أَوْلَى..

وَالْغَالِبُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ لَا يَقَعَ إِلَّا لِغَلَبَةِ هَوًى، مِنْ حُبِّ دُنْيَا أَوْ جَاهٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، بِحَيْثُ يَكُونُ وَصْفُ الْهَوَى قَدْ غَمَرَ الْقَلْبَ، حَتَّى لَا يَعْرِفَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرَ مُنْكَرًا.

وَالثَّانِي: الْفَلَتَاتُ النَّاشِئَةُ عَنِ الْغَفَلَاتِ الَّتِي لَا يَنْجُو مِنْهَا الْبَشَرُ..

وَالثَّالِثُ: كَوْنُهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ؛ فَلَمْ يَصِرِ الْعِلْمُ لَهُ وَصْفًا، أَوْ كَالْوَصْفِ مَعَ عَدِّهِ مِنْ أَهْلِهَا، وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى غَلَطٍ فِي اعْتِقَادِ الْعَالِمِ فِي نَفْسِهِ، أَوِ اعْتِقَادِ غَيْرِهِ فِيهِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [الْقَصَص: ٥٠]»[(١)].

وطلب العلم ضربٌ من ضروب الجهادِ في سبيل الله تعالى، قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعْلِيمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةً وَطَلَبَهُ عِبَادَةً، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ، يَرْفَعُ اللهُ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأَئِمَّةً يُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِأَفْعَالِهِمْ وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ»[(٢)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فجعل البحث عن العلم من

---

(١) الموافقات: ١/ ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) جامع بيان العلم وفضله: ص٢٦٨، قال شيخ الإسلام في الفتاوى: ٤/ ١٠٩: وَهُوَ مَحْفُوظٌ عَنْ مُعَاذٍ.

الجهاد في سبيل الله». اهـ[(١)].

وطلبُ العلمِ لذةٌ لا تُعادلها لذة، وسعادةٌ لا تُعادلها سعادة، وسير العلماء أكبر شاهد على ذلك.

قال شيخ الإسلام: «لا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات». اهـ[(٢)].

فلذات الدنيا بأكملها من رئاسةٍ وأموالٍ وأولادٍ في كفة، والعلم الشرعي المؤصل في كفة أخرى راجحة.

وقد قلت في ذلك:

يا لذةً بين كُتْبِ العلم أعشقها	لا شيءَ يعدلها مَالٌ ولا سَمَرُ
هي الغذاءُ لروحي بل شِفَا سَقَمي	وهْي الأنيس إذا ما أقبلَ القَمَرُ
وأَكْسَبَتْنِيْ عقولًا للورى ذهبوا	أجسادُهم فنيتْ والعلمُ مُسْتَطَرُ
تُعطي الهناءَ بلا مَيْنٍ ولا كدَرٍ	ولا جدالٍ كما قد يفعل البشَرُ
وما بِها مع طويلِ الْمُكثِ أيُّ أذىً	ولا ملالٌ ولا عَتْبٌ ولا ضَجَرُ
ماذا اسْتَفَادَ الذي جاب الفيافي ومَنْ	لها مع الصَّحْبِ إذ أوْقاتُهُمْ هَدَرُ
والعُمْرُ ليس له مِن فوتِه عِوَضٌ	وبئْسَ عُمْرٌ فنى وما له أثَرُ
أقْبِلْ على العلم وابْحَثْ عن مجالسِهِ	فالعلم عزٌّ ومجدٌ كلُّهُ عِبَرُ
كم عالمٍ كان قبل العلم مُمْتهنًا	فإذ به عَلَمٌ كالمزنِ ينتشرُ

ولَمَّا كان العلم بهذه المنزلةِ الشريفة، والمكانة السامية، كان لزامًا على كلِّ من أراد نيله أنْ يتأدب بآدابه، ويتخذ الأسباب الصحيحةَ للدخول من أبوابه، ومن أجل ذلك كتبتُ ما يسَّر الله في هذا الموضوع في هذه الورقاتِ التي بين يديك، واجتهدْتُ فيها حسب الوسع والطاقة،

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٣٩.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٦/ ١٦٢.

أسأل الله تعالى أنْ ينفع بها إخواني المسلمين وطلاب العلم خصوصًا، وقد بيَّنْتُ أنه لا بدّ لبناءِ طالب العلم من العنايةِ التامّةِ بسبعةِ أمورٍ أساسيَّةٍ:

١ ـ القلب والجوارح والجسم.

٢ ـ الأخلاق والأدب مع الآخرين.

٣ ـ العملُ بالعِلْمِ.

٤ ـ الدعوةُ إلى الله تعالى ونشرُ العلم

٥ ـ نَبْذُ التعصب والتحزُّب، وقبولُ الحقّ من أي أحد.

٦ ـ حفظ اللسان، وتجنُّبُ القدح في أهل العلم.

٧ ـ المنهجية الصحيحةُ في الطلب، وذلك بالعناية بأربعة أمور:

الأول: **العناية بالشيخ.**

الثاني: **العناية بالكتاب.**

الثالث: **العناية بالهدف والخطة وتنظيم الوقت.**

الرابع: **العناية بالكتابة والتأليف.**

وأختم كتابي ببحثين:

الأول: **نصائح أوجهها لمن وفقه الله تعالى للخطابة أو الوعظ.**

الثاني: **نصائح لطالب العلم الذي يرغب في التأليف والكتابة.**

وسأتناولُها بالتفصيل والتوضيح ـ بإذن الله تعالى ـ.

وبهذا يتبيَّنُ الخطأُ الفادح لدى كثيرٍ من طلاب العلم الذين يبدؤون طلب العلم بحضور الدروس العلميّة، والقراءةِ والبحث، قبل أنْ يتأدَّبوا بهذه الآداب، وقبل أنْ يعرفوا الطريقة الصحيحة في الطلب، فتضيع عليهم الأعمار دون تحصيل العلم النافع الْمُثمر.

مع أنهم على خيرٍ إنْ شاء الله حسب نيّاتهم، ولكنّ الأكمل لهم أنْ يعتنوا بآداب طالب العلم؛ ليجتمع لهم الإخلاصُ لله في الطلب، وصوابُ طريقةِ الطلب؛ فتُثمرَ العلماءَ الربّانيّين الذين يَهْدون الأُمّةَ إلى سبيل الحقّ ويذُبُّون عنه.

أسْأل الله تعالى أنْ ينفعَ بِمَا كتبتُ وأنْ يغفر لي الخطأ، وأنْ يُضاعف الأجر، وصلّى الله وسلِّم على نبيِّنا محمد.

وأتقدم بالشكر الجزيل لدار الحجاز، التي رأيت منها التعامل الحسن، والأمانة والإتقان، وهي تقوم بدور كبير في نشر ما ينفع المسلمين في دينهم ودنياهم، ويعتنون بالكتب التي تقوم على منهج السلف الصالح.

وأشكر كلّ من ساهم في مراجعة هذا الكتاب، فجزاهم الله خيرًا وبارك فيهم.

أحمد بن ناصر الطيار
إمام وخطيب جامع
عبد الله بن نوفل بالزلفي
البريد الإلكتروني:
ahmed0411@gmail.com
رقم الجوال:
٠٥٠٣٤٢١٨٦٦





الأول

العنايةُ بالقلب والجوارح والجسم

العنايةُ بالقلب هو الأصل في صلاح الإنسان واسْتقامته، وطالب العلم أحوج ما يحتاجه إلى العناية والاهتمام بقلبه خاصَّةً، ثم تكون له عنايةٌ بحفظ جوارحه عن ارْتكاب ما يُغضب الله تعالى، ولا ينسى عنايتَه بصحته وغذائه.

ولتحقيق هذا المطلب لا بدّ من العنايةِ بالأمور التالية:

١ ـ الحذر من مواطن المعصية، وخاصةً في الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، ومواقع التواصل الاجتماعي، وليستحضر قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

نقل النووي عن الشافعي رحمهما الله قوله: «من أحبّ أنْ يفتح الله قلبه أو ينوِّره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه، واجتناب المعاصي، ويكون له خبيئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل». اهـ[١].

ولْيخش من يُقلب ناظريه إلى الحرام أنْ يُذهب الله عنه بركة العلم، ويمحوَه ويمحقَه.

قال ابن الجوزيّ رَحِمَهُ اللهُ: «إخواني! اسمعوا نصيحة من قد جرب وخبر، إنه بقدر إجلالكم الله عَزَّ وَجَلَّ يجلكم، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظم أقداركم وحرمتكم.

ولقد رأيت ـ والله ـ من أنفق عمره في العلم، إلى أن كبرت سنه،

(١) المجموع: ١/ ١٣.

ثم تعدى الحدود، فهان عند الخلق، وكانوا لا يلتفتون إليه، مع غزارة علمه، وقوة مجاهدته.

ولقد رأيت من كان يراقب الله ﷻ ـ في صبوته مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم ـ فعظم الله قدره في القلوب، حتى علقته النفوس، ووصَفَتْه بما يزيد على ما فيه من الخير».اهـ[(١)].

٢ ـ الإخلاص لله تعالى، وتصحيح النية في طلب العلم من أهمِّ وأوجب الواجبات، قال الذهبي رحمه الله: «من طلب العلمَ للعمل كسره العلمُ، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامق، واختال، وازدرى بالناس وأهلكه العُجْبُ، ومقتَتْهُ الأنفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]؛ أي: دسَّسَها بالفُجور والمعصية. قُلِبتْ فيه السينُ ألفًا».اهـ[(٢)].

ولكي تكون نيَّتُك صحيحةً سليمةً في طلب العلم، تُؤَجر على كل ثانيةٍ تقضيها في سبيل تحصيله عليك بما يلي:

أ ـ أن تقصد بطلبك للعلم امتثالَ أمر الله ورجاء ثوابه، حيث أثنى الله تعالى على أهل العلم ثناءً عظيمًا، ولا غرض من هذا الثناء إلا دعوة الناس إلى اللَّحاق بركبهم.

قال ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فتنوي بطلب العلم امتثال أمر الله، فإذا نويت ذلك سيكون طلبُك للعلم عبادةً وقربةً تتقرب بها إلى الله، مناقشتُك وقراءتُك وبحثُك وتفكرك عبادةٌ تُثقِّل بها موازين حسناتك.

(١) صيد الخاطر: ص٢٣٠.
(٢) السير «تهذيبه»: ٣/ ١٤٠١.

بل وستجد لذة عجيبةً، وراحة أكيدة، قال العلامة الشاطبي رحمه الله تعالى: «فَإِنَّ الْعَامِلَ بِمُقْتَضَى الِامْتِثَالِ مِنْ نَتَائِجِ عَمَلِهِ الِالْتِذَاذُ بِمَا هُوَ فِيهِ، وَالنَّعِيمُ بِمَا يَجْتَنِيهِ مِنْ ثَمَرَاتِ الْفُهُوم، وَانْفِتَاحِ مَغَالِيقِ الْعُلُوم، وَرُبَّمَا أُكْرِمَ بِبَعْضِ الْكَرَامَاتِ، أَوْ وُضِعَ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، فَانْحَاشَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وحلَّقوا عَلَيْهِ، وَانْتَفَعُوا بِهِ، وأمُّوه لِأَغْرَاضِهِمُ الْمُتَعَلِّقَةِ بِدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَدْخُلُ عَلَى السَّالِكِينَ طُرُقَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، مِنَ الصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَطَلَبِ الْعِلْمِ، وَالْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ، وَسَائِرِ الْمُلَازِمِينَ لِطُرِقِ الْخَيْرِ، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ ذَلِكَ: كَانَ لِلنَّفْسِ بِهِ بَهْجَةٌ وَأُنْسٌ، وَغِنًى وَلَذَّةٌ، وَنَعِيمٌ بِحَيْثُ تَصْغُرُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى لَحْظَةٍ مِنْ ذَلِكَ». اهـ[1].

ب ـ أنْ تنوى بطلب العلم رفع الجهل عن نفسك أولًا ثم الناس ثانيًا.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: العلم لا يعدله شيءٌ لمن صحَّتْ نِيَّتُه، قالوا: كيف يا أبا عبد الله؟ قال: ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره.

ج ـ أن تنوى حفظ الشريعة والملَّة من أهل البدع والضلالة والأهواء، فتنوي بطلبك حراسةَ الإسلامِ والمسلمين.

٣ ـ الاقتصادُ في الخلطة والطَّعام، والراحة والنوم وغيرها.

أما الاقتصاد في الخلطة: فطالب العلم أحوج ما يكون إلى التفرغ للعلم والقراءة وحضور مجالس العلم.

وما أضْعَفَ هِمَمَ طلاب العلم إلا كثرة مُجالسةِ بعضِهم لبعض بلا منفعةٍ واضحة، والإكثار من النزهات والأحاديث التي لا تتعلق بالعلم.

---

(١) ٢/ ٢٩٨.

وطالب العلم ينبغي عليه أنْ يُجاهد نفسه على الانفكاك من التعلق بأصدقائه ومُحبِّيْهِ؛ ليتفرغ لطلب العلم، وإنْ أكْثَرَ من خلطتهم فسيضعف عن الطلب، ويتراجع كثيرًا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وَأَمَّا حُبّ النَّاسِ لَهُ[(١)] فَإِنَّهُ يُوجِبُ أَنْ يَجْذِبُوهُ هُمْ بِقُوَّتِهِمْ إلَيْهِمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ قُوَّةٌ يَدْفَعُهُمْ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ وَخَشْيَتِهِ[(٢)]، وَإِلَّا جَذَبُوهُ وَأَخَذُوهُ إلَيْهِمْ..

وَقَدْ يُحِبُّونَهُ لِعِلْمِهِ أَوْ دِينِهِ أَوْ إحْسَانِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَالْفِتْنَةُ فِي هَذَا أَعْظَمُ[(٣)]، إلَّا إذَا كَانَتْ فِيهِ قُوَّةٌ إيمَانِيَّةٌ وَخَشْيَةٌ وَتَوْحِيدٌ تَامٌّ، فَإِنَّ فِتْنَةَ الْعِلْمِ وَالْجَاهِ وَالصُّوَرِ فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ مَقَاصِدَهُمْ إنْ لَمْ يَفْعَلْهَا وَإِلَّا نَقَصَ الْحُبُّ، أَوْ حَصَلَ نَوْعُ بُغْضٍ، وَرُبَّمَا زَادَ أَوْ أَدَّى إلَى الِانْسِلَاخِ مِنْ حُبِّهِ فَصَارَ مَبْغُوضًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَحْبُوبًا.

فَأَصْدِقَاءُ الْإِنْسَانِ يُحِبُّونَ اسْتِخْدَامَهُ وَاسْتِعْمَالَهُ فِي أَغْرَاضِهِمْ حَتَّى يَكُونَ كَالْعَبْدِ لَهُمْ[(٤)].

---

(١) كالأصدقاء المقربين، فهم يجذبون صاحبهم إلى مُجالستهم، واللهو معهم، وكم خسر الكثير من طلاب العلم الخير والعلم بسببهم، حيث يُكثرون النزهات والاجتماعات، وهذا يُلهي طالب العلم والداعية والمصلح عن خير كثير.

(٢) فلن يتخلص الإنسان من فتنة الأصدقاء والمحبين إلا بقوة الإيمان، وحب الكريم المنان، الذي عرف قدره فأحبه، فأغناه حبه عن حب كل محب، وانشغل بطاعته عن الشغل معهم، والأنس به عن الأنس معهم.

(٣) صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكم أوقعت محبةُ الناس للعالم والداعية والمصلح من مفاسد، وكم صدتهم عن الصدع بالحق، وكم جرُّوه إلى مُداهنتهم ومُحاباتهم، وكم سكت عن قول حقٍّ مخافة سقوطه من أعينهم!

(٤) وهذا هو الواقع غالبًا، فلا ينبغي للعاقل أنْ يُفني عمره معهم وهذه حالهم، ويُقدمهم على مصالحه وما فيه نفعه وهذه حقيقتهم.

وَأَعْدَاؤُهُ يَسْعَوْنَ فِي أَذَاهُ وَإِضْرَارِهِ.

وَأُولَئِكَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ انْتِفَاعَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مُضِرًّا لَهُ مُفْسِدًا لِدِينِهِ، لَا يُفَكِّرُونَ فِي ذَلِكَ، وَقَلِيلٌ مِنْهُمْ الشَّكُورُ.

فَالطَّائِفَتَانِ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَقْصِدُونَ نَفْعَهُ وَلَا دَفْعَ ضَرَرِهِ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ أَغْرَاضَهُمْ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ الْإِنْسَانُ عَابِدًا اللهَ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مُوَالِيًا لَهُ وَمُوَالِيًا فِيهِ وَمُعَادِيًا، وَإِلَّا أَكَلَتْهُ الطَّائِفَتَانِ، وَأَدَّى ذَلِكَ إلَى هَلَاكِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». اهـ[١].

وأما الاقتصاد في الطعام: فطالب العلم ينبغي أنْ يكون أحرص من غيره في ذلك، فيكون مُنظَّمًا في أكله، ويختار الطعام المفيد النافع، فله أثرٌ كبيرٌ في نشاطه وفهمه وحفظه.

ومن أهم ثمرات العناية بالأكل الجيد، أنه سببٌ ـ بإذن الله ـ لحفظ صحتك، وهذه غايةٌ لطالب العلم حتى يتفرغ للعلم، فكثرة العاهات والآلام ـ التي منشؤوها المعدة غالبًا ـ تُضيِّع الوقت، وتُفسد المزاج.

وطالب العلم العاقل، لو لم يَعْتَنِ بأكله، ويدع الإفراط فيه إلا لأجل هذه الثمرة لكفى.

قال ابن جماعة رَحِمَهُ اللهُ: «والذهن الصحيح أشرف من تبديده وتعطيله بالقدر الحقير من طعامٍ يؤول أمرُه إلى ما قد عُلم، ولو لم يكن من آفات كثرة الطعام والشراب إلا الحاجة إلى كثرة دخول الخلاء لكان ينبغي للعاقل اللبيب أن يصون نفسه عنه.

ومن رام الفلاحَ في العلم وتحصيلَ البغية منه مع كثرة الأكل والشرب والنوم فقد رام مُستحيلًا في العادة». اهـ[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦٠١ ـ ٦٠٣.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: ص١٦٨.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إصلاحُ البدن سببٌ لإصلاح الدين». اهـ[١].

وأما الاقتصاد في النوم: فإنّ كثرة النوم تُميت القلب، وتُثقل البدن، وتُضيع الوقت، وتُورث كثرة الغفلة والكسل.

ولا بد من العناية بضبط نومه، فيكون نومُه مُحدَّد البداية والنهاية، ومن لم ينضبط في نومه لن ينضبط في يقضته غالبًا، ومن باب أولى فإنه لن ينضبط في قراءته وطلبه للعلم.

ولْيحرص على النوم المبكر، والقيام قبل الفجر، وقد ذكر أهل الخبرة والطبّ: أنّ «كلّ ساعةِ نومٍ من بعد العشاء إلى منتصف الليل، تُوازي ثلاثَ ساعاتٍ من النوم العميق، وأما النوم مِن بعدِ مُنْتَصَفِ الليل، إلى قُبيل الفجر بساعتين تقريبًا، فيوجد فيها عشرون بالمائة من النوم العميق النافع، والباقي لا فائدة منه، والساعةُ منه بساعةِ نومٍ فقط.

وأما النومُ مِنْ بعد الفجر، فهو نومٌ غيرُ مفيدٍ أبدًا، وإنك تُلاحظ مَن ينام بعد الفجر، يقوم ولم يشبع من نومه، ولا يزيدُه هذا النومُ إلا خمولًا وكسلًا، وقد ثبت أنه سببٌ في انعدام البركة، وسببٌ في تشويش التفكير وانعدام التركيز»[٢].

٤ ـ الحذر من أمراض القلب، كالعجب والغرور، واحتقار الآخرين، وهي أمراضٌ لا يدوم العمل الصالح معها، «وعجبُ المرء بنفسه أحدُ حسّاد عقله»[٣]، وقد يكون العلم وبالًا على صاحبه إذا لم يتخلص من أمراض القلوب.

---

(١) صيد الخاطر: ص١٢٠.

(٢) منقولٌ بتصرف من كلام د. حمزة الحمزاوي عن فنّ النوم.

(٣) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ): ص٢٢٧.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أثناء حديثه عن مُحاسبة النفس: «أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عَيّرْت بها أخاك فهو أعظم إثمًا من ذنبه وأشد من معصيته، لما فيه من صَولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها. ولعل كَسْرَتَه بذنبه، وما أحدث له من الذلة، والخضوع، والازدراء على نفسه، والتخلص من مرض الكبر، والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها، والمِنَّة على الله وخلقه بها. فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله، وما أقرب هذا المُدِلّ من مَقْت الله. فذنب تُذِل به لديه أحب إليه من طاعة تُدِل بها عليه، وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلًا هو فيك وأنت لا تشعر.

ولا يأمن كرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله، وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الاسراء: ٧٤] وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]». اهـ[(١)].

واعلم أنه لا بد لكل عمل من نشوة يعقبها فترة وملل، فلْيوطن طالب العلم نفسه على ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «العبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، إما إلى الأمام وإما إلى وراء، وليس من الطبيعة ولا في الشريعة: وقوف البتة، ما هو إلا مراحل تُطوى أسرعَ طَيٍّ إلى الجنة أو إلى النار، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر: ٣٧] ولم يذكر واقفا، إذ لا منزلة بين الجنة والنار ولا طريق لسالك إلى غير الدارين

(١) مدارج السالكين: ١/ ١٧٧.

البتة، فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مُجدٍّ في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور ثم ينهض إلى طلبه.

قلت: لا بد من ذلك، لكن صاحب الوقفة له حالان:

- إما أن يقف ليُجِمَّ نفسه ويُعدَّها للسير، فهذا وقفته يسيرة ولا تضره الوقفة، فإن لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة.

- وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه وجاذب جذبه من خلفه، فإن أجابه أخره ولا بد، فإن تداركه الله برحمته وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره: نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع ووثب وجمز واشتد سعيًا ليلحق الركب، وإن استمر مع داعي التأخر وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة وإجابة داعي الهوى حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركًا وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض فإنها أخطر منه وأصعب، وبالجملة: فإن تداركه الله ﷻ هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه وتخليصه وإلا فهو في تأخر إلى الممات راجع القهقرى ناكص على عقبه أو مول ظهره ولا قوة إلا بالله والمعصوم من عصمه الله». اهـ[1].

٥ - جاهد نفسك كثيرًا، وامنعها كثيرًا من رغباتها وأهوائها، فستجدها تنقاد لك ولو بعد حين.

قال الشاعر:

والنفسُ كالطفلِ إن تهملهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِم

(١) مدارج السالكين: ١/ ٢٦٧ - ٢٦٨.

وقال الآخر:

ومَنْ يطعمُ النفسَ ما تشتهي   كمن يُطْعِمُ النارَ جزلَ الحطبْ

وقال الآخر:

ففي قمع أهواء النفوس اعتزازها   وفي نيلها ما تشتهي ذلُّ سرمدِ

فلا تشتغل إلا بما يكسب العلا   ولا ترضَ للنفس النفيسة بالرَّدِي

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي قوة قهر الهوى لذةٌ تزيد على كل لذة، ألا ترى إلى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلًا؛ لأنه قُهِر، بخلاف غالب الهوى؛ فإنه يكون قوي القلب عزيزًا؛ لأنه قَهَر؟!».اهـ[(١)].

٦ ـ احذر من طلب الشهرة والسمعة، فهي من أخطر الأمراض التي ابْتُلي بها كثيرٌ من طلاب العلم وغيرهم.

ومما يُلاحظ على طلاب العلم أيام النَّهَم، وبدايات طلب العلم، أنهم يجدون نشوةً وحماسًا في العلم، وإلقاءِ الكلمات، ومحبةٍ أحيانًا في البروز والظهور.

وقد انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم يفضِّل الخمول وعدم الظهور أبدًا، ولو بإلقاء كلمات في القرى المحتاجة للعلم والدعوة، ويفضل الجلوس عند المشايخ وطلاب العلم، على حساب قراءته وجرده لكتب العلماء، ويقول بأن العلم الحقيقي عند المشايخ.

وهذا القسم قد يستأنسون بما ورد عن بعض السلف في تفضيلهم للخمول وذمهم لمحبة الذكر والشهرة.

كما ورد عن سُحنون رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: كان بعضُ من مضى يُريد أن

---

(١) صيد الخاطر: ص٩٣.

يتكلَّم بالكلمة، ولو تكلَّم بها لانتفع بها خلقٌ كثير، فيحبسها، ولا يتكلَّم بها مخافةَ المباهاة(١).

وهؤلاء مضى عليهم سنواتٌ ربما تجاوزت الخمس عشرة سنة ولم نر لهم أثرًا في مجتمعهم، فلم يكن منهم الخطيب، ولا المؤلف، ولا صاحب الدروس والمحاضرات.

كم جعلوا من الخمول جدارًا منعهم نفعَ العباد، وكم جعلوا الشهرة حجةً في طلب الرقاد.

٢ ـ قسمٌ لا يرى الخمول وعدم الظهور أبدًا، ويبادر بإلقاء الكلمات في كل مكان وحتى في حيِّه وبين مشايخه، ولا يكثر الجلوس عند المشايخ وطلاب العلم، ويفضل قراءة وجرد كتب العلماء، ويقول بأن العلم الحقيقي في الكتب.

وهؤلاء قد يستدلون بما ورد عن بعض السلف الذين لا يرون كتمان الحال والشهرة، كما قال أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عملتُ عملًا أبالي مَن رآه إلا أن يخلو الرجل بأهله أو يقضي حاجة غائطٍ»(٢).

فهؤلاء طار ذكرهم، واشتهر أمرهم، ولكن ما أكثر زلاتهم، وأعظم جرأتهم، وما أحبهم للثناء، وما أقربهم من الرياء.

٣ ـ قسمٌ يرى الخمول وعدم الظهور، ولا يفضل الشهرة والذكر ولا يكرهه، ويحرص على إلقاء الكلمات في القرى المحتاجة للعلم والدعوة، ولا يتجرأ على إلقائها في حيه وبين مشايخه توقيرًا واحترامًا لهم، ويكثر الجلوس عند المشايخ والعلماء وطلاب العلم، لكن ليس

---

(١) السير «تهذيبه»: ٣/ ٩٨٣.
(٢) صفة الصفوة: ٤/ ٤٢٨.

على حساب قراءة وجرد كتب العلماء، فهو كثير الاطّلاع، ملازمٌ لأهل العلم، ويقول بأن العلم الحقيقي بين الكتب والعلماء.

وهؤلاء هم أهل العلم والدعوة، وهم الصادقون المخلصون ـ ولا يعني بأن غيرهم ليسوا كذلك ـ، ففيهم الخطباء البلغاء، وفيهم الدعاة الفصحاء، منهم من ألفَّ كُتُبًا، ومنهم من أقام دروسًا، ولكنهم مع ذلك لا يحرصون على الظهور والبروز، ولا يتجرؤون على الفتوى المخالفة لما اشْتُهر عند العلماء.

والحق أن الشخص لا يُلام على ما يجده من محبةٍ للذكر الحسن، والشهرة في الخير ونفعِ الناس.

ففي صحيح مسلم أنه قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ قَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**».

فأخبر أن حَمْد الناس للمؤمن بشارة معجلة في الدنيا، فكيف لا يفرح أحدٌ ببشارةٍ معجلةٍ له في الدنيا؟

وعند الإمام أحمد بإسنادٍ صحيح على شرط مسلم بلفظ: «**يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ فَيُحِبُّهُ النَّاسُ**»، وهذا القيد لا بدّ منه، فلو عمل أحدٌ عملًا لّلناس قاصدًا الثناء فلا أجر له في ذلك، ولكنه يعمله لنفسه في الأصل، فينتشر ذكره عند الناس فيحمدونه.

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على مقولة إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما صدق الله عبدٌ أحبَّ الشُّهرة.

قال: عَلَامَةُ المُخْلِصِ الَّذِي قَدْ يُحبُّ شُهرَةً، وَلَا يَشعُرُ بِهَا: أَنَّهُ إِذَا عُوتِبَ فِي ذَلِكَ، لَا يَحرَدُ وَلَا يُبرِّئُ نَفْسَه، بَلْ يعترِفُ، وَيَقُوْلُ: رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهدَى إِلَيَّ عُيُوبِي، وَلَا يَكُنْ مُعجَبًا بِنَفْسِهِ؛ لَا يَشعرُ بِعُيُوبِهَا، بَلْ لَا

يَشعرُ أَنَّهُ لَا يَشعرُ، فَإِنَّ هَذَا دَاءٌ مُزْمِنٌ». اهـ[١].

فحبُّ الشهرةِ قد لا يسلم منها الكثير من الناس، وهي لا تكون مذمومةً إذا كان مقصد صاحبها حسنًا، وذلك بأنْ لا يريد منها إلا نفعَ الناس وتبليغَ العلم النافع لهم؛ لأن الناس لا يُقْبِلون على من يجهلون.

وعلامةُ صحة مقصده: أنه يقبل النقد والعتاب، ويرجع إلى الحق والصواب، وأنْ لا يضيق صدره بقلة المتابعين له، وأن لا يُعجب بنفسه ولا بعلمه.

وإذا رأيت نفسك تفرح وتأنس عندما يُحيط بك الناس يُسلمون عليك عندما تذهب إلى مكانٍ ما، أو رأيت كثرة من يعرفك ويُصافحك، فاسْأل نفسك: هل فرحي لأني أصبحت مشهورًا مثل بقيّة المشاهير؟ وربما ذكرت ذلك لمن حولك إظهارًا لمكانتك بين الناس؟

أم فرحي لأنّ الناس انتفعوا بعلمي، وبما بذلت وسعيت؟

فإن كان الأول: فراجع نفسك وأصلح نيتك وسريرتك.

وإن كان الثاني فلا لوم على فرحك، بل أنت مأجورٌ على ذلك؛ وذلك لمحبتك نفع الناس.

وأكثرْ ـ يا طالب العلم ـ سؤال الله تعالى أنْ يفتح عليك، وأنْ يرزقك الهمة العالية، والإرادةَ الصادقة، والنية الصالحة.

والفرق بين الصدق والإخلاص: أنَّ «للعبد مطلوبًا وطالِبًا، فالإخلاص: توحيد مطلوبه، والصدق: توحيد طلبه. فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب»[٢].

---

(١) السير «تهذيبه»: ٢/ ٧٠٨.

(٢) مدارج السالكين: ١/ ١١٠.

واعلم أنَّ من أعظم ما يُوفَّقُ له الإنسان الهِمَّةَ العاليةَ الشريفة، فبِها ينال مطلوبَه، ويُحقّق أُمنيتَه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكمالُ كلِّ إنسانٍ، إنَّما يَتِمُّ بهذين النَّوعين، هِمَّةٌ تُرقِّيهِ، وعلمٌ يُبصِّرهُ ويَهديهِ؛ فإنّ مَراتَب السَّعادَةِ والفَلاحِ، إنَّما تفوتُ العَبدَ من هاتَين الجهتَين، أو مِن إحداهُما».اهـ[1].

والمقصودُ مِنْ علو الهمة استصغارُ ما دون النهاية من معالي الأمور، وطلبُ المراتب السامية.

إنَّ عاليَ الهمة يجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايتِه النبيلة، وتحقيقِ بغيته الشريفة؛ لأنه يعلم أنَّ المكارم منوطةٌ بالمكاره، وأن المصالحَ والخيرات، واللذاتِ والكمالات كلَّها، لا تُنَالُ إلا بحظٍّ من المشقة، ولا يُعْبَرُ إليها إلا على جسرٍ من التعب.

بَصُرتُ بالراحة الكبرى فلم أرها تُنال إلا على جسرٍ من التَّعَب

بل إنه لا يرضى بالرَّاحة ولو ضُمنت له المكارم؛ كراهة أن يعتاد العجز والكسل.

قَالَ بَعضهم: مَا أحب أَنِّي مكفيٌّ وَأَنْ لي مَا بَين شَرق إِلَى غرب، قيل: وَلم؟ قَالَ: كَرَاهَة عَادَة الْعَجز[2].

عالي الهمةِ يُرى منطلقًا بثقةٍ وقوةٍ وإقْدام، نحو غايتِه التي حدَّدَها على بصيرةٍ وعِلْم، فيقتحم الأهوال، ويستهين الصعاب على كلّ الأحوال..

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) الناشر: دار الفكر، بيروت: ص٧٤.

إذا غـامَـرْتَ فــي شَـرَفٍ مَـرُومِ   فَـلا تَـقـنَـعْ بـمـا دونَ الـنّـجـومِ

عالي الهمة له نظامٌ يسير عليه، وهدفٌ يصبوا إليه، ومنهجٌ لا يحيد عنه، ووقتٌ يَضِنُّ ويَبْخَلُ به، ونفسٌ لا تَسْعى إلَّا إلى تهذيبِها وكبحِ جماحِها، لا تنعِيْمِها وتلبيةِ رغباتِها.

والـنَّـفْـسُ راغِـبَـةٌ إذا رَغَّـبْـتَـهـا   وإذا تُـرَدُّ إلـى قَـلِـيـلٍ تَـقْـنَـعُ

عالي الهمة تتقطّع نفسُه حسراتٍ على دقائق لم ينتفع بها، يرى أنّ وقتَه أغلى من إهدارِه بملاذّ الدنيا ومُتَعِها، ونفسُه أشرف من قناعتها بما دون الكمال.

كبيرُ الهمة لا يَنْقُضُ عَزْمَه، ويجعل قول الله تعالى نُصب عينيه: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ليس كحال الكثير مِن طلاب العلم، يعزم على أمرٍ ويمضي فيه، ثم تدعوه نفسُه إلى التراجع والتّوقف فيُطاوعها.

كبيرُ الهمة يرى أنّ «كلَّ عزيزٍ دخل تحت القدرة فهو ذليل، وأنّ مَن لم يقدّمه حزمٌ أخّره عجز»[(١)].

وإليك بعضَ الأمثلة على الهمم العالية:

كان الحافظُ الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ، يمشي وفي يده جزءٌ يُطالعه[(٢)].

وقال ابن حِبَّان رَحِمَهُ اللهُ: لعلَّنا قد كتَبنا عن أكثرَ من ألفي شيخ.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «كذا فلتكن الهمم، هذا مع ما كانَ عليه من الفقهِ والعربيَّةِ، والفضائل الباهرة، وكثرةِ التصانيف»[(٣)].

---

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ): ص٢٢٢.
(٢) السير «تهذيبه»: ٢/ ١٤١٣.
(٣) السير «تهذيبه»: ٣/ ١٢٦٩.

وقال أبو حاتِم الرازي رَحِمَهُ اللهُ لابنه عبدِ الرحمٰن: «يا بنيَّ، مَشَيْتُ على قدمي في طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ»[(١)].

والفرسخ يُعادل ستةَ كيلو مترات تقريبًا؛ أي: أنه مشى على قدمَيه ما يُقارب ستة آلاف كيلو في طلب العلم.

الله أكبر، نحن لم نمش مثلها ولا أقلَّ منها على مراكبنا السريعة في طلب معالي الأمور، وهو يمشي هذه المسافات على قدمَيه! ولكنها الهمم التي كالجبال الشامخات.

وإذا كانت النفوسُ كِبارًا   تعبتْ في مُرادها الأجسامُ

خرج بعضُ السلف إلى البصرة، لِيَسأل عالِمًا عن آية يجهلُها، فلم يجد عنده فيها علمًا، فدلّه على عالمٍ من أهل الشام، فقدم إليه وسأله عنها[(٢)].

قارن بين حالِه وحال بعض طلاب العلم، تفاسيرُ العلماء منتشرةٌ في كل مكان، في المساجد والبيوت والجوالات، ولم يُكلّف نفسه الرجوعَ إليها إذا أشكلت عليه آيةٌ.

صاحب الهمة العالية لا يقنع بما دون الجنة.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «كانت لي نفسٌ تَوَّاقة، فكنت لا أنال منها شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أعظم، فلما بَلَغَتْ نفسي الغاية، تاقت إلى الآخرة»[(٣)].

وقيل للعتّابيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «فلانٌ بعيدُ الهمة. قال: إذن لا يكون له غايةٌ

---

(١) البداية والنهاية: ١١/ ٥٩.
(٢) الحلية «تهذيبه»: ١/ ٣٠٥.
(٣) الحلية «تهذيبه»: ٢/ ٢٣٧.

دون الجنة»[١].

عظيمُ الهمّةِ لا تمنعه عن الوصول إلى القمّة، إعاقةٌ ولا فقرٌ ولا كِبَر، فالكثير من العظماء بلغوا الغاية في الشرف والنُّبل، وهم مُبتَلَون بإِحْدَى هذه الصفات أو كُلِّها.

بل إنّ عاليَ الهمة لا يقف عن طلب معالي الأمور، ولو كان على فراش الموت.

دخلوا على سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ في مرضه الذي مات فيه، فحدثه رجلٌ بحديث فأعجبه، فأخرج ألواحًا له فكتب ذلك الحديث[٢].

أين نصيبك من الهمة يا طالب العلم، كم أمضيتَ في العلم وأنت لا تزال تزحف فيه زحفًا، يومًا تنشغل بالسّفريّات، ويومًا تنشغل بالتقنيات، وأوقاتًا كثيرةً تُضيّعها بالقيل والقال مع الأصحاب والأقارب.

واعلم أن من أعظم أسباب نيل الهمَّة ما يلي:

أولًا: توفيقُ الله تعالى وإعانتُه، فاطلب الهِمَّةَ من الْمُعينِ الكريم، فلن تنال التوفيق إلا منه، ولن تبلغ الْمجد إلا بعنايتِه سبحانه.

فأكثر من دُعاء الله تعالى وسؤاله أنْ يُلهمك الهمة العالية.

ثانيًا: التّفكرُ في شَرَفِ ما تَطْلُبُه وتَسْعى إليه.

قال بعضُ السلف: من عرف ما يَطلب، هان عليه ما يَبذل[٣].

ثالثًا: مُصاحبةُ أصحاب الهمم العالية، والنظر في سيرهم وأخبارِهم، والبعدُ عن أصحاب الهمم الدنيّة أو الْمُثبّطة.

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٧.
(٢) الحلية «تهذيبه» ٢/ ٤٠٤.
(٣) صفة الصفوة: ٢/ ٦٣٠.

ولذلك قَالَ ﷺ: **«إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضُلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ»**[(١)].

ومفهومه[(٢)]: **«إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضُلَ عَلَيْهِ فِي العلم والدينِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَعلا مِنْهُ»**.

فقد أوصانا إمامُنا وحبيبُنا ﷺ بهذه الوصية العظيمة، التي لو عملنا بها، لَحصَّلْنا خيري الدنيا والآخرة، فإذا نظرنا إلى من هو أقل منَّا في أمور الدنيا: شكرنا الله على نعمتِه وقَنِعْنَا بِمَا عندنا، وإذا نظرنا إلى من هو أعلا منَّا في الدين والأخلاق، علت همَّتُنا بأن نكون مثلهم أو أحسن منهم.

رابعًا: وضعُ خطةٍ تَسير عليها، وأهدافٍ واضحةٍ تتطلّع إليها، وتُحاسب نفسك عند عدم التقيّد بها.

خامسًا: عدمُ الانصياع وراء النفس الأمارة بالسوء، فاحذر أنْ تُجيبها إلى الدّعة والراحة.

والنفسُ كالطفلِ إنْ تهملهُ شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِم

وتأمل في حال نبيِّ الله يوسفَ ﵇، هل يُمكن أنْ يصل إلى ما

---

(١) متفق عليه: البخاري: (٦٤٩٠)، ومسلم: (٢٩٦٣).

(٢) المفهوم: هو ما دل عليه اللفظ ولكن ليس في محل النطق. وينقسم إلى قسمين:

١- مفهوم موافقة، وهو ما كان المفهوم فيه مُوافقًا أو أولى بالحكم من المنطوق؛ مثل فهمنا لتحريم الشتم والضرب للوالدين من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾؛ لأن منطوق الآية الكريمة تحريم التأفيف، فيكون تحريم الشتم والضرب أولى وأحق لأنهما أشد من التأفيف.

٢ - مفهوم مخالفة، وهو ما يخالف حكمه المنطوق، وهو المقصود بالحديث الذي سُقتُه.

وأما المنطوق: هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق؛ أي: أن دلالته تكون من مادة الحروف التي ينطق بها.

وصل إليه من المكانة والرفعة، وتخليدِ ذكره، لو وافق مرادَ امرأةِ العزيز، وهي تدعوه إلى مُواقعتها، وهي بكامل زينتها وشرف منصبِها؟

سادسًا: المجاهدة والصبر: فجاهدْ نفسَك وألْزِمْها بلوغَ الغايات، وأعالي المقامات، وعدمَ الرضا بالدُّوْن، وكُلَّما جاهدتَّ نفسك في بلوغ القِمَمِ بَلَغْتَها بحول الله تعالى، وقد وعد الله تعالى ومن أصدق من الله قِيْلًا، الهدايةَ لِمَنْ جاهد وصابر، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن الجوزي رَحَمَهُ ٱللَّهُ: «من تذكر حلاوة العاقبة نسي مرارة الصبر». اهـ.

ولن تنال المعالي والمجد إلا بالصبر والمصابرة.

فَمن لم تُبَلِّغْهُ الْمَعَالِيَ نَفْسُهُ ... فَغَيْرُ جديرٍ أَنْ يَنَالَ الْمَعَالَيَا

ومن أعظم المجاهدة: «إلزامُ النفسِ تغييرَ طبعِها إلى ما هو أفضل، ولنْ تَشُمَّ رائحةَ الهمّةِ والتوفيقِ والمجد وأنت مُسْتَسْلِمٌ لطبعك، أسيرُ عاداتك ونشأَتِك.

فكن رجلًا رِجْلُه في الثَّرى ... وهَامَةُ هِمَّتِه في الثُّرَيَّا

فاحرص على أنْ تُلزم نفسك وتُكرهها على تطبيق كلِّ ما ينفع ويُفيد، وقل لنفسك: سأعمل وأطبق ما أراه مفيدًا ونافعًا لي، وسأترك ما يضرُّني أو لا ينفعني، وستنقاد نفسُك لك مع مرور الأيام مُرغَمَةً ومُنقادةً بشكلٍ عجيب.

واجعل من منهجك: أنْ تُغيِّرَ وتطوِّر نفسك، فتَغْيِيْرُ الطباع صعبٌ جدًّا إلا من عوَّد نفسه التغيير والتطوير، دون تسويف أو تأخيرٍ.

ولهذا قيل: أحزم الناس من إذا وَضَحَ له الأمرُ صَدَع فيه، قال

تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]»[١].

«فَالْفَوْزُ وَالْفَلَاحُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَزِيمَةِ الْحَافِزَةِ إِلَى الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ، فَمَنْ خَسِرَ إِحْدَى الْفَضِيلَتَيْنِ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَسِرَ نَفْسَهُ سَوَاءً كَانَ فَرْدًا، أَوْ أُمَّةً، فَمَا بَالُ مَنْ خَسِرَهُمَا كِلْتَيْهِمَا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى»[٢].

واعلم أنّ العلم إذا لم يُحدث فيك هذا الأمر فليس بعلم نافع.

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ الْعِلْمُ الْمُعْتَبَرُ شَرْعًا ـ أَعْنِي: الذي مدح الله ورسوله ﷺ أَهْلَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ ـ هُوَ الْعِلْمُ الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ، الَّذِي لَا يُخلي صَاحِبَهُ جَارِيًا مَعَ هَوَاهُ كَيْفَمَا كَانَ، بَلْ هُوَ الْمُقَيِّدُ لِصَاحِبِهِ بِمُقْتَضَاهُ، الْحَامِلُ لَهُ عَلَى قَوَانِينِهِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا». اهـ[٣].

واعلم أنَّ مِن أسباب توفيق الله تعالى لطالب العلم، وتَمكِيْنِه في طلب العلم ما يلي:

أ ـ الإخلاص لله ﷻ، بأن يكون قصده بطلب العلم وجه الله والدار الآخرة، وذلك لأنَّ طلب العلم الشرعي عبادة، والعبادة لا بدّ من الإخلاص فيها لله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وفي صحيح مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: سمعت رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ**

---

(١) «الذريعة في مكارم الشريعة»: ص١٤٩، تحقيق: أبي اليزيد العجمي، طباعة: دار السلام.

(٢) تفسير المنار: ٧/ ٢٨٣.

(٣) الموافقات: ١/ ٨٩.

فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

والأدلة والشواهد كثيرةٌ جدًّا، فاحذر أن تتلوث نيتُك بشيءٍ من حُطام الدنيا، كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعلِه سُلَّمًا لِمُتع ومناصب الدنيا، من جاهٍ أو مالٍ، أو سمعةٍ، أو صرفِ وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية أفسدتها، وأذهبت بركة العلم.

ب ـ العمل بالعلم، وهذا هو الغاية من العلم وثمرته.

وقد اشتد إنكار السلف على من قدَّم العلم على العمل، أو قدم العمل على العلم، بل هما متلازمان، فثمرةُ العلم العمل.

قال سُفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديثٌ قَطُّ إلا عملتُ به ولو مَرَّة»[1].

(١) السير «تهذيبه»: ٢/ ٦٩٦.

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلّا ارتحل»[١].

وعن عبد الله بن المبارك. قال: «سئل سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طلب العلم أحب إليك يا أبا عبد الله أو العمل؟ فقال: إنما يراد العلم للعمل، لا تدع طلب العلم للعمل، ولا تدع العمل لطلب العلم»[٢].

ج ـ تعظيم الدين حقَّ التعظيم، وعدم المحاباة والمداهنة أبدًا، والنفرة من المعاصي والذنوب، فإنَّ للمعاصي أثرًا كبيرًا في نسيان العلم، فالعلم نورٌ يُضيءُ القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، قال رجل للإمام مالك: «يا أبا عبد الله، هل يصلح لهذا الحفظ شيء؟ قال: إن كان يصلح له شيء، فترك المعاصي».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه البديع «أعلام الموقعين» (٢/ ٥٧١): «وَالْمُعَوَّلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى حُسْنِ النِّيَّةِ، وَخُلُوصِ الْقَصْدِ، وَصِدْقِ التَّوَجُّهِ فِي الِاسْتِمْدَادِ مِنْ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ، مُعَلِّمِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ـ؛ فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ مَنْ صَدَقَ فِي التَّوَجُّهِ إلَيْهِ لِتَبْلِيغِ دِينِهِ وَإِرْشَادِ عَبِيدِهِ وَنَصِيحَتِهِمْ وَالتَّخَلُّصِ مِنْ الْقَوْلِ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ، فَإِذَا صَدَقَتْ نِيَّتُهُ وَرَغْبَتُهُ فِي ذَلِكَ لَمْ يَعْدَمْ أَجْرًا إنْ فَاتَهُ أَجْرَانِ.

وَكُلَّمَا بَعُدَ عَنْ اللهِ كَثُرَتْ عَلَيْهِ الْمُعَارَضَاتُ، وَضَعُفَ نُورُ كَشْفِهِ لِلصَّوَابِ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي الْقَلْبِ، يُفَرِّقُ بِهِ الْعَبْدُ بَيْنَ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ». اهـ.

د ـ الدعاء، والإدمانُ عليه، فهذا شيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٥٢٣.

(٢) الحلية «تهذيبه»: ٢/ ٣٧٨.

إِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْمَسَائِلُ يَقُولُ: «يَا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي» وَيُكْثِرُ الِاسْتِعَانَةَ بِذَلِكَ..

هـ ـ التدرج في طلب العلم، وقد تقدم ذكره.

و ـ الصبر والثبات والمجاهدة.

لا تحسِب المجدَ تَمرًا أَنت آكِلُه   لن تِبْلُغَ المجدَ حتى تلعَقَ الصَّبِرا

ز ـ حفظ الوقت والعنايةُ به، وطالب العلم ينبغي أنْ يكون أحرص الناس على الاهتمام بالوقت، وعدم تضييع جزءٍ منه بلا منفعةٍ.

والوقت أنفس ما عُنيت بحفظه   وأراه أسهل ما عليك يضيعُ

قال عبد الرحمٰن بن أبي حاتم رَحِمَهُ اللهُ: «كنا بمصر سبعة أشهر، لم نأكل فيها مرقة، كل نهارنا مقسم لمجالس الشيوخ، وبالليل: النسخ والمقابلة.

قال: فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا، فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت، حضر وقت مجلس، فلم يمكنا إصلاحه، ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغير، فأكلناه نيئًا، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه.

ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد»(١).

وبعض طلاب العلم لم يجد وقتًا للقراءة والحفظ لانشغاله بالسفريات أو الاجتماعات والجَلَسات، وانْهِمَاكه بأنواع الأكلات، وكثرة نومِه، وانشغاله بالكماليات ونحوها.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «يا من أنفاسه محفوظة، وأعماله ملحوظة

(١) تذكرة الحفاظ: ٣/ ٨٣٠، السير «تهذيبه»: ٣/ ١٠٧٩.

أينفق العمر النفيس في نيل الهوى الخسيس؟!»اهـ[(١)].

والوقت هو الحياة، فما الأيام إلا صفحاتٌ في كتاب حياتنا، وما الساعات في تلك الأيام، إلا كالأسطر في صفحاتها، التي سرعان ما تَخْتِمُ الصفحةَ حتى ننتقلَ إلى صفحةٍ أخرى، وهكذا حتى تنتهيَ صفحاتُ كتاب العمر.

وبقدر ما نحسن تقليب صفحات أيامنا تلك، نحسن الاستفادة من كتاب حياتنا.

ولا شك أن إدراك الإنسان لقيمة وقته، ليس إلا إدراكًا لوجوده وإنسانيته، ووظيفته في هذه الحياة الدنيا، وهذا لا يتحقق، إلا باستشعاره للغاية التي من أجلها خلقه الله ﷻ.

والوقت ليس كالمال الذي يُمْكِنُنا ادّخاره، أو تعويضُ ما يُصرف منه، فهو يمر سريعًا، سواءٌ أحسنّا استغلاله أو أسأنا.

والْمُشكلة عندنا ليس من قلّة الوقت، بل من عدم تنظيم الوقت، وعدم وجود النية الصادقة في اسْتغلاله وتنظيمِه.

وحُسنُ تنظيم الوقت، هو الفارقُ بين طالب العلم الناجح والْمخفق.

وإنّ من الحرمان أنْ يُضيع طالبُ العلم وقته الثمين، الذي هو عمره وحياتُه، بين جلَساتٍ طويلةٍ مع الأصحاب، أو لهوٍ وأكل في الاستراحات، أو سياحةٍ أو صيدٍ أو نحو ذلك.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «إنني لأتعجب ممن يجلس خاليًا عن الاشتغال!»اهـ[(٢)].

(١) المدهش: ص٥٥٣.
(٢) الجواهر والدرر: ١/ ١٧٠.

وحُقّ له أن يتعجب، فكيف يرضى العاقل أنْ يقضي وقتًا بدون شغل ينفعُه في دينِه أو دُنياه!

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ولقد شاهدت خلقًا كثيرًا لا يعرفون معنى الحياة: فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله، فهو يقعد في السوق أكثر النهار، ينظر إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر! ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج! ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحديث عن السلاطين، والغلاء والرُّخْص، إلى غير ذلك.

فعلمتُ أنَّ الله تعالى لم يُطْلِعْ على شرف العمر، ومعرفةِ قدر أوقات العافية، إلا من وفَّقه وأَلْهَمَهُ اغتنام ذلك، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]». اهـ[(١)].

إنّ عُظماءَ الهمّة كانوا أحرص الناس على أوقاتهم، وأحرسهم له من قاطعي الطريق والبطالين، فهذا الإمامُ ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ يقول: «إني لا يحل لي أن أضيع ساعةً من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرةٍ ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أَعْمَلْتُ فكري في حالة راحتي وأنا مُسْتَطْرِح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أُسَطِّرُه».

وهذا الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ، يصف حاله حين قعوده مع أضيافه: ثم أعددتُ أعمالًا لا تمنع من المحادثة، لِأَوقاتِ لِقَائِهِمْ؛ لئلًا يمضي الزمان فارغًا.

فجعلت من الاستعداد للقائهم، بريَ الأقلام وحزمَ الدفاتر، فإنَّ هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى حضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي! ا.هـ[(٢)]

(١) صيد الخاطر: ص٢٤١.

(٢) صيد الخاطر: ص٢٠٦.

وهذا إمام الزمان، شيخُ الإسلامِ ابنُ باز رحمه الله تعالى، كان مُعَدَّلُ نومه لا يزيد في اليوم والليلة على أربع ساعات، ويقضي عشرين ساعةً في العبادةِ والتعليم وكشف الكرب، والنصح والوعظ والفتوى، وإكرامِ الضيوفِ والإصلاح والشفاعة.

ومع كل هذه الأعمال الكبيرة، التي نعجز عن عُشْرِها إلا من شاء الله، كان لا يشتكي ضيقَ الوقت كحالنا مع قلّة أشغالنا؛ لأنه اسْتطاع تنظيمَ وترتيبَ وقته، ولا أدلَّ على ذلك، مِن حفظه ألفيةَ العراقيِّ وهو يتوضأ، حيث كان يُسْكَبُ عليه الماءُ فيتوضأ، وآخر يقرأ عليه من الألفية، فيحفظ بيتًا أو بيتين، إلى أن انتهت الألفية، وحفظ بهذه الطريقة كتبًا أخرى، بل كان إذا سافر أمر من بجانبه أنْ يقرأ عليه كتابًا.

وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم　　　وتأتي على قدر الكرام المكارم

وإنّ لحفظ الوقت أسبابًا يجبُ العنايةُ بها:

أولها وهو أهمّها: شعورُ الإنسان بالْغايةِ من وجوده، وأنه ما خُلق عبثًا، بل خُلق ليزرع الخير والبرّ؛ لِيَحصده يوم الحصاد الأكبر.

فكلّ عاقلٍ يسعى لعملٍ يُدرّ عليه مالًا، وإذا سألته لماذا تعمل؟ قال: لِكي أُؤَمِّن مُسْتقبلي وحياة أبنائي.

وقد أصاب في ذلك، ولكن، أليس تأمينُ المستقبلِ الأصليِّ أولى، وتأمينُ الحياةِ الباقيةِ الخالدةِ أهمّ؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرةٌ نفيسةٌ، فإضاعة هذه الأنفاس خسرانٌ عظيم، لا يسمح بمثله إلا أجهلُ الناس، وأَحْمَقُهُمْ وأَقَلُّهُمْ عقلا.

وإنما يظهر له حقيقةَ هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا

بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]». اهـ[١].

ثانيها: أنْ يكون للإنسان هدفٌ يسعى إليه، ونظامٌ وجدولٌ يسير عليه.

ثالثها: أنْ يُصاحبَ أصحابَ الهمة والعزيمة، ويُكثرَ من القراءةِ والمطالعةِ في الفنّ الذي يميل إليه.

وكثيرًا ما يُحسن الشيطان لطالب العلم مُجالسة غيره من طلبة العلم، والإكثار من ذلك؛ بحجة الاستفادة منه، أو التباحث والنقاش، ولذلك أوصى بعض السلف أصحابه فقال: «إذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم»[٢].

قال بعض السلف: «شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم»[٣].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما يكاد يحب الاجتماع بالناس إلا فارغ؛ لأنَّ المشغولَ القلب بالحق تعالى يفر من الخلق، ومتى تمكن فراغ القلب من معرفة الحق تعالى امتلأ بالخلق، فصار يعمل لهم، ومن أجلهم، ويهلك بالرياء ولا يعلم». اهـ[٤].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة: فإن في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**من قال: سبحان الله العظيم وبحمده؛ غرست له بها نخلة في الجنة**»[٥].

---

(١) إغاثة اللهفان: ص٨٩.
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح المقدسي: ٣/ ٤٥٧.
(٣) الرسالة التبوكية لابن القيم: ص٨٦.
(٤) صيد الخاطر: ص٢١٤.
(٥) رواه الترمذي وحسّنه: (٢٣٦٤ و٣٤٦٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة: (٨٢٧)، وابن حبان (٨٢٦ و٨٢٧)، عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وله شاهد رواه الإمام أحمد: ٣/ ٤٤٠، وصححه الألباني. «الصحيحة»: ص٦٤.

فكم يُضيِّعُ الآدميُّ من ساعاتٍ يَفُوتُه فيها الثواب الجزيل!

وهذه الأيام مثل المزرعة، فكأنه قيل للإنسان: كلما بذرت حبة، أخرجنا لك ألف كرّ[١]، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف في البذر ويتوانى؟!

والذي يعين على اغتنام الزمان: الانفراد والعزلة مهما أمكن، والاختصار على السلام أو حاجةٍ مهمة لمن يَلقى، وقلة الأكل؛ فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل، ومن نظر في سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرتُه». اهـ[٢].

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ من حيل الشياطين على الإنسان: أن يُشْغلوه بالطَّاعَاتِ الْمَفْضُولَةِ، لِيَشْغَلُوهُ بِهَا عَنْ الطَّاعَاتِ الْفَاضِلَةِ الْكَثِيرَةِ الثَّوَابِ، فَيُعْمِلُ حِيلَتَهُ فِي تَرْكِهِ كُلَّ طَاعَةٍ كَبِيرَةٍ نافعة، إِلَى مَا هُوَ دُونَهَا وأقلَّ منها، فيأمُرُه بفعل الخير المفضول، ويحثُّه عليه، ويُحَسِّنه له، حتى يدعَ ما هو أفضلُ وأعلى منه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقلَّ من يتنبه لهذا من الناس، ولم يصل علمُه إلى أنَّ الشيطان، يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصَّل بها إلى بابٍ واحد من الشر، وإما ليفَوِّت بها خيرًا أعظمَ، وأجلَّ وأفضل من تلك السبعينَ بابًا». اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[٣].

فتأمل يا طالب العلم، كيف أن الشيطان الرجيم يحثُّك على أبوابٍ كثيرةٍ من الخير والبر، ليتوصَّل من خلالها إلى بابٍ من الشرّ.

---

(١) الكر = ٢٩٢٥ كغ.
(٢) صيد الخاطر: ٢١٤.
(٣) بدائع الفوائد، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، أشرف أحمد الج: ٢/ ٤٨٥.

نسأل الله تعالى، أنْ يجنبنا مكائدَ الشيطان ووساوسَه، وحيَلَهُ ومكره، إنه سميعٌ قريبٌ مجيب.

ومن أسباب قلَّةِ تحصيل العلم، مع طول الزمن في الطلب ما يلي:

أ ـ ضعف الإخلاص، أو وجود أمراض القلب.

ب ـ ضعف الهمة والإرادة، وعدم التضحية في سبيل نيل العلم الشريف.

ج ـ قلة الاهتمام بالقرآن الكريم، الذي هو أساس العلم وأصلُه.

د ـ المعاصي والذنوب الظاهرة والباطنة.

هـ ـ عدم وضوح الهدف.

و ـ قلَّةُ القراءة والبحث، والاكتفاء بالشيوخ.

ومِمَّا ينبغي أنْ يحذر منه طالب العلم: الْمُبالغةُ في العناية بالقلب والسلوك على حساب اكْتِسَابِ وتحصيل العلم، فإنّ الشيطان يفتح للإنسان بابَ خيرٍ لِيَصدّه عن أبوابٍ أعظم وأشرف منه.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «تأملتُ العلم والميل إليه والتشاغل به، فإذا هو يُقويّ القلب قوةً تميل به إلى نوع قساوة، ولولا قوة القلب وطول الأمل لم يقع التشاغل به.

فإني أكتب الحديث أرجو أن أرويه، وأبتدئ بالتصنيف أرجو أن أتمه، فإذا تأملت باب المعاملات[1] قلّ الأمل، ورق القلب، وجاءت الدموع، وطابت المناجاة، وغشيت السكينة، وصرتُ كأني في مقام المراقبة!

إلا أنَّ العلمَ أفضلُ وأقوى حُجَّة، وأعلى رُتْبة، وإنْ حَدَث منه ما شكوتُ منه.

(١) يقصد باب السلوك وما يتعلق بصلاح القلب.

والمعاملة وإن كثرت الفوائد التي أشرتُ إليها منها، فإنها قريبةٌ إلى أحوال الجبان الكسلان، الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم.

فالصواب العكوفُ على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرققات تلذيعًا لا يقدح في كمال التشاغل بالعلم».اهـ[١].

❁ ❁ ❁

(١) صيد الخاطر: ص١٨٣.



الثاني

العنايةُ بالأخلاقِ والأدبِ مع الآخرين

ممَّا ينبغي لطالب العلم أنْ يهتمّ بأخلاقه وسلوكه، وأنْ يكون على هديِ قُدْوته وإمامه ﷺ، وأنْ يتعامل مع الآخرين ـ وخاصةً العلماء ومشايخه ـ بأحسن مُعاملة.

لذلك فإنَّ العلماءَ وطلبةَ العلم هم أولى الناس وأحقُّهم بالأدب وحسن الخلق؛ لأنهم أعلم الناس بالحق، ولمكانهم بين الخلق حيث ينظر الناس إليهم نظرة خاصة، فإن أحسنوا كان ذلك سببًا لمحبة الناس لهم وقبول الحق منهم، وإن أساؤوا كان ذلك سببًا لبعد الناس عنهم وكراهية ما هم عليه من الهدى.

قال عبد الله بن المبارك: سفِهَ رجلٌ على إسحاق الحنظلي فاحتمله وقال: لأيِّ شيءٍ تَعلَّمنا العِلْم؟.

نعم: لأيِّ شيءٍ تعلمنا نحن العلم، وفهمنا وقرأنا كثيرًا من الآيات والأحاديث التي فيها الصبر والحلم وكظم الغيظ، فإذا لم نعمل بها فما قيمتها في صدورنا!!.

وطالب العلم أحوج ما يكون إلى الأخلاق والأدب مع غيره ولو مع المخالفين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأدبُ المرء عنوان سعادته وفلاحِه، وقلةُ أدبه عنوان شقاوته وبَوارِه. فما استُجلب خيرُ الدنيا والآخرة بمثل

الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب». اهـ[١].

وقال عبد الله بن المبَارك رَحِمَهُ اللهُ: «كاد الأدب يكون ثُلثَي الدِّين»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «بل الأدب هو الدين كله». اهـ[٣].

فدينُنا مبنيٌّ على الأدب مع الخالق سبحانه، بعباداته وحده وتعظيمِه، ومع الناس باحترامهم ومُعاملتِهم بأحسن معاملة.

فالذي يُخلّ بالأدب إنما يُخلّ بالدين، ولو كان من أعبد العابدين، وأعلم الناسِ أجمعين.

وقد كان مَن مضى من علمائنا وسلفنا، يعتنون بالأدب اعتناءً شديدًا، يقول الزهري رَحِمَهُ اللهُ: «كنا نأتي العالِمَ، فما نتعلم من أدبه أحبُّ إلينا مِن علمه»[٤].

وقال الإمامُ مالكُ بنُ أنس رَحِمَهُ اللهُ ناصحًا أحدَ طلَّابه: «تَعَلَّمِ الأدب قبل أن تتعلم العلم»[٥].

وقال ابن وَهب رَحِمَهُ اللهُ: «ما نَقَلْنَا مِن أدب مالكٍ أكثرُ مِمَّاَ تعلَّمنا من علمه»[٦].

وهذا الإمامُ أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، يقول عنه الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «كان يجتمعُ في مجلسِه زُهاءَ خمسةِ آلافٍ أو يزيدون. نحوِ خمسِمائةٍ يكتبون، والباقون يتعلَّمون منه حُسْنَ الأدب والسَّمْت»[٧].

---

(١) بتصرف. مدارج السالكين: ٣/ ٢٠٩ - ٢١٠.
(٢) صفة الصفوة: ٤/ ٣٧٩.
(٣) مدارج السالكين: ٣/ ٢٠٠.
(٤) الحلية «تهذيبه»: ٢/ ٢٣.
(٥) الحلية «تهذيبه»: ٢/ ٣٥٩.
(٦) السير «تهذيبه»: ٢/ ٧٣٧.
(٧) السير «تهذيبه»: ٢/ ٩٤٧.

هكذا كان العلماء ولا زالوا، يُعلمون الناس الأدب والأخلاق قبل العلم، لكنَّ بعضًا من العلماءِ وطلاب العلمِ لم يُراعوا هذا الجانب، فقلّ نفعُهم وخيرُهم، بل حصل من بعضِهم فسادٌ عظيم، فجعلوا العلم وسيلةً لتجريح من يُخالفهم، ولمز من يجتهدُ اجتهادًا لا يُوافق آراءَهم، ووالله لو تعلَّموا الأدب كما تعلموا العلم، لَمَا رأينا إلا الخير والمودّة بينهم، وعمّ نفعُهم أرجاء الأرض.

ولكي يُعطي هذا الجانب المهم حقَّه عليه بمُراعاةِ الأمور التالية:

١ ـ أنْ يقوم بحقوق شيخه ومُعلمه، ومن حقوق الشيخ والمعلم عليه:

أ ـ الاحترام والتقدير والأدب، ولكن لا تصل إلى مرحلة القداسة والأخذ بكل ما يصدر منه.

فاحْترام وتقدير الشيخ والمعلم والحياء منه من أعظم أسباب التوفيق، لكنَّ الحياءَ لا يمنع من السؤال والمناقشة.

ب ـ خدمته والقيام بحوائجه، وهذا من أقل ما يُجازيه على تعليمه العلم.

ج ـ الصبرُ على ما يبدُرُ منه من قسوةٍ أو تأنيب أو جفاء.

د ـ أنْ تنسب الفضل بعد الله له، وتُكثرَ من الثناء عليه، وأنْ تذكر أنْك اسْتفدتّ منه، وتتلمذت عليه، وما ظفرت منه بفائدةٍ أو معلومةٍ فاذكرها منسوبةً إليه.

هـ ـ أنْ تدعو له في حياته وبعد مماته، في سجودك وقنوتك، وسرّك وجهرك.

و ـ النصحُ له، وإخباره بما تراه من نقصٍ أو خطأ، ويكون ذلك بأسلوبٍ في غاية اللطف والأدب، ولْيحذر من الاعتراض عليه وردِّ كلامه.

وبالجملة: لا ينبغي للطالب أنْ يُعامل شيخه مُعاملةَ القرين، «وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ يُعَامِلُ أُسْتَاذَهُ وَمُرْشِدَهُ مُعَامَلَةَ الْمُسَاوَاةِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، يَقِلُّ احْتِرَامُهُ لَهُ وَتَزُولُ هَيْبَتُهُ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى تَقِلَّ الِاسْتِفَادَةُ مِنْهُ أَوْ تَعْدَمَ، وَإِذَا لَمْ تَزُلِ الِاسْتِفَادَةُ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ مُعَلِّمًا، فَإِنَّهَا تَقِلُّ وَتَزُولُ لَا مَحَالَةَ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ مُرَبِّيًا؛ لِأَنَّ الْمَدَارَ فِي التَّرْبِيَةِ عَلَى التَّأَسِّي وَالْقُدْوَةِ، وَمَنْ أَرَاهُ مِثْلِي لَا أَرْضَاهُ إِمَامًا وَقُدْوَةً لِي، فَإِنْ رَضِيتُهُ بِالْمُوَاضَعَةِ وَالتَّقْلِيدِ وَكَذَّبَتْنِي الْمُعَامَلَةُ، فَأَيُّ قِيمَةٍ لِهَذَا الرِّضَى، وَالْعِبْرَةُ بِمَا فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ، وَهُوَ أَنَّ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ امْرءًا فَوْقَهُ عِلْمًا وَكَمَالًا، وَأَنَّهُ فِي حَاجَةٍ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنْ عِلْمِهِ وَإِرْشَادِهِ، وَمِنْ أَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَاوِيَ نَفْسَهُ بِهِ فِي الْمُعَامَلَةِ الْقَوْلِيَّةِ وَلَا الْفِعْلِيَّةِ، إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْ فَلَتَاتِ اللِّسَانِ وَمِنَ اللَّمَمِ»(١).

قال العلامة الفقيه محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ:

«أوصيكم إذا قَعَدْتم عند عالم، تدرسون عنده، أن تعتقدوا أنه عالمٌ معلِّم، لا حاكٍ للأقوال، أو حاكٍ للشروح فقط، معلّم، بمعنى أنه أسوةٌ لكم، تقتدون به في علمه، وفي آرائه، وفي أعماله الصالحة، حتى يكون لكم نبراسًا، تمشون عليه. أما الإنسان الذي يجلس عند العالم، ليطَّلع على ما عنده من العلم فقط! فلن يستفيد كثيرًا، بل هو شيخك، اقتدِ به، خذ بأقواله، احترمها، لا تطلب غيرها، كما كنا نفعل وكان غيرنا أيضًا يفعلون، نعتقد أن شيخنا هو شيخنا، هو أسوتنا، هو قدوتنا، ولا نبغي بديلًا بقوله، بل نأخذ به، وإذا قُدِّر للإنسان أن يترعرع، ويُؤتى علمًا كثيرًا، فإنه يجب عليه أن يتّبع ما دل عليه الكتاب والسُّنَّة؛ لأن شيخه غير

(١) تفسير المنار: ١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

معصوم، لكن في أوّل الطلب، لا! اجعل شيخك قدوة لك في العلم والعمل والخُلق حتى تنتفع منه، أما أن تجلس على شيخٍ لتنظر ما عنده! فهذا غلط». اهـ[(١)].

ومن حقوق التلميذ على شيخه ومعلمه:

أ ـ الرفق به، والتواضُعُ والبشاشة له، واللين والصبرُ عليه، وعدمُ القسوة والغلظة عليه.

قال ابن جماعة رَحِمَهُ اللهُ: «وينبغي أن يعتني ـ أي: الشيخُ ـ بمصالح الطالب، ويعامله بما يعامل به أعزَّ أولادِه، من الحنوِّ والشفقة عليه والإحسان إليه، والصبرِ على جَفَاءٍ ربما وقع منه؛ نقصٍ لا يكاد يخلو الإنسان عنه، وسوءِ أدبٍ في بعض الأحيان». اهـ[(٢)].

ب ـ نصحُه وتوجيهه، وإخباره بما يراه عليه من نقصٍ أو خطأ أو عيب.

ج ـ أنْ يُعلمَه ويربيَه على صغار العلم قبل كباره، والتدرجِ في التعليم.

د ـ التواصلُ معه، وتفقده إذا غاب، وعيادتُه إذا مرض، وتشجيعُه ورفعُ همَّته.

والتعامل الرسميّ بين الطالب وشيخه والْمُبالغةُ في الاحتشام أوجدَ حواجز كثيرةً وعميقةً بينهما، وإني أعرف كثيرًا من طلاب العلم لا يسأل شيخه ولا يُناقشه ولا يُحاوره في بعض المسائل والقضايا؛ لما يجده من الهيبة والحدة من الشيخ.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية، الشريط الأول.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: ص١٤١.

وقد يفهم البعض أن هذا من الهيبة، والهيبة ليست بالغِلظة ولا بالجَفاء ولا بتقطيب الوجه، بل يُلبِسها الله مَن يشاء من عِباده، وقد يكون أحسن الناس أخلاقًا وأوسعهم صدرًا، ولكنه إذا تكلّم سكتوا، وإذا قال سمِعوا.

فليس هناك ترابطٌ وتلاحمٌ بين كثيرٍ من الشيوخ وبين طلابهم، فتجد الشيخ آخر عهده بالطالب هو درسه، ولو افتقده لأشهرٍ بل وسنوات لا يسأل عنه إلا إذا رآه بالصدفة.

أين الترابط بين الشيخ وتلاميذه؟، أليس التلاميذ بمثابة الأبناء، يحفظون وينشرون علم الشيخ، ويتربون على يديه؟.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوةٌ وقدوةٌ لنا، فهذا عَبْدُ اللهِ بْن عَمْرٍو رضي الله عنه يقول: «ذُكِرَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ صَوْمِي، فَدَخلَ عَلَيَّ، فَأَلْقَيْتُ لَهُ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَجَلَسَ عَلَى الأَرْضِ، وَصَارَتِ الوِسَادَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ». متفق عليه[1].

ثم بدأ يُناقشه ويُحاوره ويُقنعه بعدوله عن رأيه.

فما إنْ ذُكر له ﷺ خطأ عبد الله حتَّى بادر إليه، وتكلَّف المجيءَ بنفسه الشريفة إلى بيته، ولم يطلب من أبيه أنْ يُحضر ولده، مع أنَّ الحاجة له ولولده، فقد ورد أنه هو الذي شكا ولده بسبب تقصيره في حقّ امرأته لشغله بالعبادة.

فلماذا لا يُبادر الشيخُ إلى زيارة تلميذه؟ أو يتصلُ به على الأقل ويسأله عن أحواله؟ فكم سيترتب على ذلك من بالغ الأثر على نفسِ التلميذ.

(١) البخاري: (١٩٨٠)، ومسلم: (١١٥٩).

٢ ـ **لا تُجامل الناس والأقارب في العلم**، فكن كريمًا إلا في وقتك ـ فيما لا ينفع ـ وكن صريحًا في رفضك للكثير من المجالس والسهرات التي تُشغلك عن العلم.

٣ ـ **الحذر من التكلف في كلِّ شيء**، في الأخلاق، والعبادة، وطلب العلم، وتعاملْ مع الناس بكل لُطْفٍ واعتدال.

ومن زاد عن التوسط والاعتدال: فقد دخل في التكلف المذموم، الذي نهى الله تعالى نبيَّه أنْ يكون منهم، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦].

وقال عمر رضي الله عنه: «نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ». رواه البخاري[(١)].

٤ ـ **لا ينبغي أنْ يُقارن طالب العلم نفسَه مع غيره كثيرًا**، وخاصةً ممَّن أُوتوا سعةً في الحفظ أو الفهم، فإنَّ الله أعطى كلَّ أحدٍ ما لم يُعط الآخر، فمن عنده حفظ وذكاء، قد لا يكون عنده جَلَدٌ في التأليف والتفهيم، وقد لا يكون عنده أسلوبٌ مُؤثر في نشر العلم والدعوة إلى الله تعالى.

فلا ينبغي أنْ يُكلف طالب العلم نفسَه ما لا تُطيق، ويُحاول أنْ يكون مثل فلانٍ وعلّان، الذين أُوتوا من القدرات والمواهب ما لم يُؤت مثلها، بل ينبغي أنْ يبذل جهده حسب طاقته وما تُحسنه نفسُه.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لا ينبغي أن يطالب الإنسان بما يقوى عليه غيره، فيضعف هو عنه، فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه».اهـ[(٢)].

والمقارنة نوعان:

١ ـ **مُقارنة مُثبِّطة**: وهي أنْ تُقارن نفسك مع مَن يفوقك بمراحل، وتُصاب بالإحباط.

---

(١) (٧٢٩٣).

(٢) صيد الخاطر: ص٢١٤.

٢ ـ **مُقارنة مُنشِّطة**: وهي أنْ تُقارن نفسك مع مَن يفوقك بقليل، أو يُقاربك، وهي التي تُحفزك على اللحاق بالركب.

٥ ـ البعد عن المجادلة والنقاش العقيم، ومن أُوتي الجدل حُرم التوفيق والعمل.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ في رَبَضِ الْجَنَّةِ، لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا**». رواه أبو داود[١] وحسَّنه الألباني.

ومعنى قَوْلِه: «**وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاء**»: أَيْ: الْجِدَال، وذلك خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقَع صَاحِبه فِي الخصام والغضب، الْمُسبِّبِ للعداوة والفرقة.

وقَوْلُه: «**وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا**»: أي: وإن كان ذا حقٍّ في نفس الأمر؛ وذلك لأنه بعد أن يُرشدَ خصْمَه إلى الحقّ، ويأبى خصمُه قبولَه والإذعانَ له، وهو يعرف أنْ خصمه مُعاندٌ لا يقبل الحق، فلا ثمرة ولا فائدة مِن جداله، سوى تضييعِ الوقت فيما لا ينفع، وإحداثِ البغضاء والحقد.

فالنبيّ ﷺ ضمن وتكفّل لِمَن ترك الجدال والمِراء ـ وإنْ كان على حقٍّ ـ طلبًا لِمَرْضاةِ الله تعالى، وسعيًا لِلْأُلْفة ونَبذِ الخصومة، ضمن له مكانًا في الجنة، وذلك بأنْ يُثبِّته الله على الدين، ويُجنِّبه الزيغ والضلال، جزاءً على فعله العظيم.

فالجدال الذي يُؤدي إلى الخصومة والشقاق والوحشة، لا بدَّ أنْ نبتعدَ عنه حتى تسلم القلوب، وتصفو النفوس.

وجاء في الصحيحين[٢] أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اِقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا اِئْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبكُمْ**»؛ أَيْ: اِجْتَمَعَتْ، «**فَإِذَا اِخْتَلَفْتُمْ**»؛ أَيْ: فِي فَهْمِ

---

(١) (٤٨٠٢).

(٢) البخاري: (٥٠٦١)، ومسلم: (٢٦٦٧).

مَعَانِيه «**فَقُومُوا عَنْهُ**» قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «أَيْ: تَفَرَّقُوا؛ لِئَلَّا يَتَمَادَى بِكَمْ الِاخْتِلَاف إِلَى الشَّرّ». اهـ[١].

فهذا الحديث من أوضح الأدلة والبراهين: في النهي عمَّا يُنفر ويُحدث الخلاف بين المسلمين، فإذا كانتْ قراءةُ القرآن والجلوسُ لسماعه، ومعرفةُ تفسيره ومعناه ـ وهي من أعظم العبادات ـ نتج عنها اختلافٌ: فإننا نقوم عن هذه العبادة، ولا نستمر في هذه الجلسة التي فيها القراءة والعلم، فكيف بمجالسَ عامةٍ لا يُوجد فيها ذكرٌ ولا قراءةُ قرآن، ويُطرح فيها ما يُسبب الخلاف والتفرقة، من التعرُّض للجماعات أو الأشخاص أو الحكومات، فهذه المجالس أولى أنْ يُقام عنها، وتُترك وتُهجر.

والْمراء والجدال المذموم، هو ما يكون فيه أحدُ أمورٍ ثلاثة:

- إما أنْ يكون معه حدَّةٌ وغضبٌ وقسوة.
- وإما أنْ يكون بلا تثبُّتٍ ومعرفة.
- وإما أنْ يكون عديمَ الفائدة.

ولا بد أنْ يُعلم أنَّ مَنْ كان شديدًا في جِداله وخِصامه: فهو من أبغض الناس عند الله تعالى، قَالَ ﷺ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**». متفق عليه[٢].

قال العلماء: الْأَلَدّ: هو الشَّدِيد في جِدَالِه، وهو الذي كلَّما فُتح بابٌ للجدال كان أسرَعَهم إليه، وأقواهم مُجادلةً فيه، بلا بحثٍ ولا علمٍ ولا معرفة.

---

(١) فتح الباري: ٩/ ١٢٩.

(٢) البخاري: (٢٤٥٧)، ومسلم: (٢٦٦٨).

٦ ـ تعلَّم الأخلاق والأدب، والمروءَةَ وحسن التعامل كما تتعلم العلم، فهي من أساسيَّات طالب العلم، ولا بركة في العلم إذا لم يُصاحبه تعاملٌ حسن، وأخلاقٌ عالية.

وكن مُتواضعًا هاضمًا لنفسك، عارفًا قدر غيرِك، واعلم أنّ أصل التواضع ما كان في القلب لا ما في الظاهر، فليس التواضع بنزولك إلى من هو أقلّ وأدنى منك، ولكن بألا ترى في نفسك ما يُميّزها عن غيرها لتنزل إليهم، فتتعاملُ مع الصغير والفقير مُعاملةَ الأخ مع أخيه والصديق مع صديقِه.

فشعورُك بأنّك متواضعٌ عند تعاملك مع من هو أقل منك ـ في الظاهر ـ دليلٌ على أنّك ترى نفسك أرفع منه، ومن أخبرك بذلك؟ فهذا نوعٌ من الترفع الخفيّ.

ولا سبب للعاقل يدعوه إلى الشعور باستعلائه على غيره ـ من المسلمين ـ، فإن كان لغناه أو لصحته وسلامة أعضائه، فقيمةُ الإنسان بلبّه وأخلاقه وعقله، ولا عبرة بالشكل ولا بالمال الذي قد يذهب بأي لحظة، وصدق القائل:

فلا تغترر بالعز والمال والمنى   فكم قد بُلينا بانقلاب صفاتها

والله تعالى لا ينظر إلى صورنا بل إلى قلوبنا، كما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**». رواه مسلم[١]

فما بالنا نعكس ذلك، فنُقيِّمُ الناس على أجسادهم وأموالهم، ولا نلتفت إلى صلاح قلوبهم وأعمالهم؟

---

(١) (٦٧٠٨).

وإذا كان لعلمه، فالجاهل قد يكون أسلم من المتعلم، فالله تعالى سيُحاسب العالم وطالب العلم بقدر علمه ماذا عمل به، وهل بلّغه وزكّاه؟

ومن أهم الوسائل في كسب الأخلاق الحسنة والأدب والمروءَةِ ما يلي:

أ ـ دعاء الله تعالى بكثرةٍ وإلحاح.

ب ـ أنْ تجعل النبي ﷺ نُصب عينيك، فتعاملْ مع الناس ومع المواقف كما كان يتعامل، فستجد لذةً في ذلك، وستنقاد نفسُك سريعًا.

ج ـ كثرةُ القراءة والسماع لأحوال وأخلاق النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، قال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

فخصِّص وقتًا لسماع وقراءة سيرهم وأخلاقهم.

وإنه لمن العجب أن البعض يتبحّر في القراءة في كثيرٍ من العلوم والفنون، ولا يقرأ ما يُهذّب به نفسه وما يُصلح به أخلاقه!!.

قال ابن الجوزيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأيتُ الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أن يُمْزَجَ بالرقائق، والنظر في سير السلف الصالحين.

فأما مجرد العلم بالحلال والحرام، فليس له كبير عمل في رقة القلب، وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث، وأخبار السلف الصالحين؛ لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها. وما أخبرتُك بهذا إلا بعد معالجة وذوق؛ لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث هَمَّةُ أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما

يُغالب به الخصم، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء؟!». اهـ[(١)].

د ـ أنْ تطلب من أقرانك وأقاربك أن يُخبروك بعيوبك، ويُصارحوك ولا يُجاملوك، ثم تعمل وتُغير مُباشرةً دون تأخير.

وقل لهم كما قال أحدُ السلفِ لصديقه: «قل لي في وجهي ما أكره، فإنَّ الرجلَ لا ينصح أخاه، حتى يقول له في وجهه ما يكره»[(٢)].

والبعض من الناس يزعم أن الإنسان لا يستطيع أن يغير أخلاقه، ولا يُبدل طباعه، بل إما أن يكون كالحمل الوديع أو كالسبع المفترس، وهذا لا يصح شرعًا ولا عقلًا، فالكافر قد يسلم، والمسلم قد يكفر، تغيرت عقائد وأديان، ألا تتغير أخلاق؟!.

قال ابن القيم: «ورياضة النفوس بالتعلم والتأدب، والفرح والسرور، والصبر والثبات، والإقدام والسماحة، وفعل الخير ونحو ذلك مما ترتاض به النفوس، ومن أعظم رياضتها: الصبر والحب والشجاعة والإحسان، فلا تزال ترتاض بذلك شيئًا فشيئًا حتى تصير لها هذه الصفات هيئات راسخة، وملكات ثابتة». اهـ[(٣)].

ومن التجارب النافعة: أنْ تضع لك سجلًا صغيرًا، وتُدوِّن فيه عيوبك وسلبيَّاتك، فالتدوين علامة الجد والحرص على التغيير، وهو ممَّا يُعينك على ذلك، حيث يُذكرك بعيوبك دائمًا.

هـ ـ تغييرُ القناعة، فبدلًا من أنْ تُقنع نفسك بأنك سريع الغضب، أبعد هذه القناعة، وحاول إقناعها بأنك تستطيع كظم الغيظ والحلم بسهولة، فغيرك اسْتطاع فلم لا تستَطيع أنت؟

---

(١) صيد الخاطر: ص٢٢٨.
(٢) الحلية «تهذيبه»: ٢/ ٥٤.
(٣) زاد المعاد: ٤/ ٢٢٥.

فمهما تمرَّنتَ وتدرَّبتَ فستجد مشقة عظيمة إذا لم تَبْدأْ بقناعتك فتُغَيّرها، فمِرَان القناعة والعقل قبل مِرَانِ الجسم والقلب.

«وَمَتَى رَسَخَ الْوَهْمُ فِي النَّفْسِ يَصْعُبُ انْتِزَاعُهُ عَلَى الْعُقَلَاءِ الَّذِينَ يَتَعَاهَدُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّرْبِيَةِ الْحَقِيقِيَّةِ دَائِمًا، فَكَيْفَ حَالُ الْغَافِلِينَ عَنْ أَنْفُسِهِم، الْمُنْحَدِرِينَ فِي تَيَّارِ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الشَّائِعَةِ، لَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَصِيرِهِمْ، وَلَا يَشْعُرُونَ فِي أَيِّ لُجَّةٍ يُقْذَفُونَ»[1].



(١) تفسير المنار: ٢/ ١٣١.



الثالثُ

العنايةُ بالعملِ بالعِلْمِ

المقصودُ الأسمى من العلم هو العمل به، وإذا لم يَنْتَفع طالب العلم من علمه فغيرُه أبعدُ من الانتفاع به.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْخَيْرُ وَالسَّعَادَةُ وَالْكَمَالُ وَالصَّلَاحُ مُنْحَصِرٌ فِي نَوْعَيْنِ: فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ». اهـ[1].

ومن جَمَع المعلومات، وأكثر من المحفوظات ثم لم يعمل بها فإنما يستكثر من حجج الله عليه، فعن عطاء قال: «كان فتى يختلف إلى أم المؤمنين عائشة، فيسألها وتحدثه، فجاءها ذات يوم يسألها فقالت: يا بني هل عملت بعد ما سمعت مني؟ فقال: لا والله يا أمه، فقالت: يا بني فبما تستكثر من حجج الله علينا وعليك؟»[2]

إذا العلم لم يُعمل به كان حجةً ... عليك ولم تعذر بما أنت حاملُ
فإن كنت قد أبصرت هذا فإنما ... يُصدِّقُ قول المرء ما هو فاعلُ

قال بعض السلف: «الَّذِي يَفُوقُ النَّاسَ فِي الْعِلْمِ جَدِيرٌ أَنْ يَفُوقَهُمْ فِي الْعَمَلِ»[3].

والعملُ بالعلم هو المقصود والغاية من تعلمك، فاقرأ وتعلم بنية أنك ستعمل وتطبق.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١٦٩.
(٢) رواه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل: ص٩٢.
(٣) الموافقات: ١/ ١٠٢، ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٢٧٠).

قال أبو قلابة رَحِمَهُ اللهُ: «إذا أحدث الله عَزَّ وَجَلَّ لك علمًا فأحدِثْ له عبادة»[(١)].

والعمل بالعلم من أعظم أسباب بركة العلم وزيادتِه، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

وَحُسْنُ الْقَصْدِ مِنْ أَعْوَنِ الْأَشْيَاءِ عَلَى نَيْلِ الْعِلْمِ وَدَرْكِهِ.

وَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ مِنْ أَعْوَنِ الْأَشْيَاءِ عَلَى حُسْنِ الْقَصْدِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ قَائِدٌ وَالْعَمَلَ سَائِقٌ، وَالنَّفْسَ حَرُونٌ، فَإِنْ وَنَى قَائِدُهَا لَمْ تَسْتَقِمْ لِسَائِقِهَا، وَإِنْ وَنَى سَائِقُهَا لَمْ تَسْتَقِمْ لِقَائِدِهَا، فَإِذَا ضَعُفَ الْعِلْمُ حَارَ السَّالِكُ وَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ يَسْلُكُ، فَغَايَتُهُ أَنْ يستطرح لِلْقَدَرِ، وَإِذَا تَرَكَ الْعَمَلَ حَارَ السَّالِكُ عَنْ الطَّرِيقِ فَسَلَكَ غَيْرَهُ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ تَرَكَهُ، فَهَذَا حَائِرٌ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَسْلُكُ مَعَ كَثْرَةِ سَيْرِهِ، وَهَذَا حَائِرٌ عَنْ الطَّرِيقِ زَائِغٌ عَنْهُ مَعَ عِلْمِهِ بِهِ». اهـ[(٢)].

واعلم أنَّ طلب العلم الشرعيّ ليس هدفُه مجردَ العلم بحكم الله تعالى وحكم رسوله؛ لأن هذا يحصل من المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولذلك ترى الكفار من المستشرقين ونحوهم الذين درسوا الفقه الإسلاميّ عندهم من علم الفقه ما ليس عند كثير من المسلمين.

بل المقصود من العلم العمل، وكل علم لا يُنتج عملًا وتقوى وخشية فهو وبالٌ على صاحبه؛ لأن ما تتعلَّمه ولًا تعمل يُؤدِّي بك ذلك إلى أنْ تكون أوَّلَ من يُعذَّب بالنار والعياذ بالله كما قال الناظم:

وعالمٌ بعلمه لم يعملن ... معذب من قبل عباد الوثن

---

(١) صفة الصفوة: ٣/ ١٨٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٥٤٤.

فالعلم سلاحٌ إما لك أو عليك.

قال ابن الحاج رَحِمَهُ اللَّهُ (المتوفى عام: ٧٣٧هـ): «وَلَعَلَّك تَقُولُ: إنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ إنْ فَعَلَ مَا ذَكَرْتُمُوهُ ـ أي: من المحافظة على قيام الليل والسنن الرواتب ونحوها ـ تَعَطَّلَتْ عَلَيْهِ وَظَائِفُهُ مِنْ الدَّرْسِ، وَالْمُطَالَعَةِ، وَالْبَحْثِ فَالْجَوَابُ: أَنَّ نَفْحَةً مِنْ هَذِهِ النَّفَحَاتِ تَعُودُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ بِالْبَرَكَاتِ، وَالْأَنْوَارِ، وَالتُّحَفِ مَا قَدْ يَعْجِزُ الْوَاصِفُ عَنْ وَصْفِهِ، وَبِبَرَكَةِ ذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ أَضْعَافُ ذَلِكَ فِيمَا بَعْدُ، مَعَ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ عَزِيزٌ قَلَّ أَنْ يَقَعَ إلَّا لِلْمُعْتَنِي بِهِ، وَالْعِلْمُ وَالْعَمَلُ إنَّمَا هُمَا وَسِيلَتَانِ لِمِثْلِ هَذِهِ النَّفَحَاتِ». اهـ[١].

ومن الملاحظ أن الله تعالى يفتح على بعض طلاب العلم فتحًا عظيمًا في العلم والتأليف؛ ولو أنْعمتَ النظر في سبب ذلك لوجدته العمل بالعلم، فإن الله تعالى يُبارك لطالب العلم بقدر عمله بعلمه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْمُسلم الصَّادِق إِذا عبد الله بِمَا شرع فتح الله عَلَيْهِ أنوار الْهِدَايَة فِي مُدَّة قريبَة». اهـ[٢].

وقد ثبت في حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ تُسعَّر بِهِمُ النار يوم الْقِيَامَةِ، قَالَ فِيهِ: **«وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ». رواه مسلم**[٣].

(١) المدخل: ٢/ ١٣٧.
(٢) الاستقامة: ص٩٦.
(٣) (١٩٠٥).

قال بعضُ السلف: «إِنَّمَا أَخَافُ أَنْ يُقال لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَعَلِمْتَ أَمْ جَهِلْتَ؟ فَأَقُولُ: عَلِمْتُ. فَلَا تَبْقَى آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ آمِرَةٌ أَوْ زَاجِرَةٌ إِلَّا جَاءَتْنِي تَسْأَلُنِي فَرِيضَتَهَا، فَتَسْأَلُنِي الْآمِرَةُ: هَلِ ائْتَمَرْتَ؟ وَالزَّاجِرَةُ: هَلِ ازْدُجِرْتَ؟ فَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ».

وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: «مَنْ حَجب الله عنه العلم؛ عذَّبه به عَلَى الْجَهْلِ، وَأَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الْعَلَمُ فَأَدْبَرَ عَنْهُ، وَمَنْ أَهْدَى اللهُ إِلَيْهِ عِلْمًا فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ»[1].

وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: «اعْلَمُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا؛ فلن يأجُركم الله بعلمه حتى تعملوا»[2].

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «وَكُلُّ ذَلِكَ يُحقق أَنَّ الْعِلْمَ وَسِيلَةٌ مِنَ الْوَسَائِلِ، لَيْسَ مَقْصُودًا لِنَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ النَّظَرِ الشَّرْعِيّ، وَإِنَّمَا هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى الْعَمَلِ، وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّمَا هُوَ ثَابِتٌ لِلْعِلْمِ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُكَلَّفٌ بِالْعَمَلِ بِهِ..

نَعَمْ، قَدْ يَكُونُ الْعِلْمُ فَضِيلَةً، وَإِنْ لَمْ يَقَعِ الْعَمَلُ بِهِ عَلَى الْجُمْلَةِ، كَالْعِلْمِ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ وَالْعَوَارِضِ الطَّارِئَةِ فِي التَّكْلِيفِ، إذا فُرض أنها لم تقع في الْخَارِجِ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِهَا حَسَنٌ، وَصَاحِبُ الْعِلْمِ مُثابٌ عَلَيْهِ وَبَالِغٌ مُبَالِغَ الْعُلَمَاءِ».اهـ[3].

وذكر رَحِمَهُ اللهُ بعض الأدلة الدَّالة على أهميّة وضرورة عمل العالم وطالب العلم بعمله، ومنها: «أَنَّ الْمُنْتَصِبَ لِلنَّاسِ فِي بَيَانِ الدِّينِ مُنْتَصِبٌ

---

(١) الموافقات: ١/ ٨٠ ـ ٨٢، ابن عبد البر في «الجامع»: (١٢١٤).
(٢) الزهد لأبي داود: ص١٨٦.
(٣) الموافقات: ١/ ٨٣.

لَهُمْ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ؛ فَإِنَّهُ وَارِثُ النَّبِيِّ، وَالنَّبِيُّ كَانَ مُبَيِّنًا بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ؛ فَكَذَلِكَ الوارث لا بد أَنْ يَقُومَ مَقَامَ الْمَوْرُوثِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ وَارِثًا عَلَى الْحَقِيقَةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الصَّحَابَةَ ـ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ـ كَانُوا يَتَلَقَّوْنَ الْأَحْكَامَ مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَإِقْرَارَاتِهِ وَسُكُوتِهِ وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِ؛ فَكَذَلِكَ الْوَارِثُ». اهـ[(١)].

ومن العجيب أنّ الصحابة ﷺ ربما توقفوا عن الفعل الذي أباحه لهم حبيبهم وقدوتُهم ﷺ بل وربما أمر به! وما إنْ يفعل ذلك حتى يُسارعوا ويُبادروا إلى الامتثال، فقد ثبت عند البخاري من حديث المسور بن مخرمة ومروان ـ في ذكر ما جرى في صلح الحديبية ـ وفيه: «فلما فرغ من قضية الكتاب؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**»، قال: «فوالله ما قام منهم رجل»؛ حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بدنه، ودعا حالقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا...».

قال الشاطبي: «هَذَا وَكُلٌّ صحيح؛ فما ظنك بمن لَيْسَ بِمَعْصُومٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ؟ فَهُوَ أَوْلَى بِأَنْ يُبَيِّنَ قَوْلَهُ بِفِعْلِهِ، وَيُحَافِظَ فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى كُلِّ مَنِ اقْتَدَى بِهِ». اهـ[(٢)].

(١) الموافقات: ٤/ ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) الموافقات: ٤/ ٨٧ ـ ٨٨.

فلو أنّ العالم تكلم كثيرًا عن الثبات عند المحن، والصدع بالحق، لَمَا كان لذلك وقعٌ في نفوس الناس وطلابِه كما لو فعل ذلك بنفسه، وشاهدوا ثباته وصدعه بالحق، وعدم مُداهنته لأحد.

وينبغي أنْ يكون لك ـ يا طالب العلم ـ أورادٌ يومية لا تتنازل عنها أبدًا، كقراءة القرآن، وقيام الليل، وأذكار الصباح والمساء.

واحرص على الجلوس في المسجد بعد الفجر حتى شروق الشمس، فهو وقتٌ مُباركٌ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرةً صلى الصبح، ثم جلس يذكر الله إلى قريبٍ من منتصف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد سقطت قوّتي».

وعمل ابن القيم بهذا بعد ذلك، كما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وخذ هذه القاعدة لعلّ الله تعالى أن ينفعك بها كما انتفعَ بها كلّ من طبّقها بعون الله: اعمل بقدر ما عندك من العلم، ولا تنتظر حتى ترسخ فيه.

وإذا أخذت بهذا النهج: فإنه يُحفزك على القيام بتزكية علمك، وأنْ تعتلي المنابر وأنْ تصنف بقدر العلم الذي حصلت عليه، وأنت ترى بعض المشايخ عنده عشرات المصنفات وهو أقلّ علمًا من بعض أقرانه، وما ذاك إلا لأنه لم يتصاغر نفسَه، وأحس بالمسؤولية تجاه نفسه وأمّته، فبذل ما يستطيع، فانتفع بذلك هو وغيره نفعًا عظيمًا.





الرابع

العنايةُ بالدعوةِ إلى الله تعالى ونشرِ العلم

تبليغ هذا العلم من أوجب الواجبات، فزكاة العلم نشرُه وتبليغُه للناس، وهو سببُ نمائه وبركته، قال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة»(١).

وقال ابن علية في قول أبي بكر المزني رحمهما الله: «ما فاق أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أصحاب محمد ﷺ بصوم ولا صلاة، ولكن بشيء كان في قلبه، قال: الذي كان في قلبه الحبّ لله عَزَّ وَجَلَّ والنصيحة في خلقه»(٢).

وعن حبيب بن أبي ثابت أنه قال: «قال لي سعيد بن جُبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأَنْ أَنشرَ علمي أحبُّ إليَّ من أن أذهب به إلى قبري»(٣).

وعن الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «العلم يقبض قبضًا سريعًا، فنشر العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله»(٤).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إياك وغلول الكتب، قلت: وما غلولها؟ قال: حبسها عن أهلها»(٥).

---

(١) الحلية «تهذيبه»: ٣/ ٢٠.
(٢) جامع العلوم والحكم: ص١٠٧.
(٣) السير «تهذيبه»: ٢/ ٥٠٦.
(٤) الحلية «تهذيبه»: ٢/ ٢٦.
(٥) الحلية «تهذيبه»: ٢/ ٢٥.

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: «العاقل لا يسعى في فنونه ـ أي: العلم ـ إلا بما أجدى عَلَيْهِ نفعًا في الدارين معًا، وإذا رُزق منه الحظ لا يبخل بالإفادة؛ لأن أول بركة العلم الإفادة، وما رأيت أحدًا قط بخل بالعلم إلا لم يُنتفع بعلمه، وكما لا ينتفع بالماء الساكن تحت الأرض مَا لم ينبع، ولا بالذهب الأحمر مَا لم يُستخرج من معدنه، ولا باللؤلؤ النفيس مَا لم يُخرج من بحره، كذلك لا يُنْتَفَعُ بالعلم مَا دام مكنونًا لا ينشر ولا يفاد».اهـ[1].

وقد أخبرني أحدُ الملازمين لكبار العلماء لسنواتٍ طويلة، ولم أره مُتمكِّنًا ولا مُؤصَّلًا، أنَّ مِن زملائه فلانًا وفلانًا ـ وهم من كبار الدعاة والمشايخ المعروفين ـ فقلت: ما السبب في عدمِ تقدُّمك وبروزك مثلهم؟ فقال بلهجةٍ فيها حسرةٌ وأسى: لأنهم قاموا بتزكية عِلْمِهم، وأنا لم أفعل!!.

ومن طرق نشر العلم لطالب العلم المبتدئ:

١ ـ نشره في مجالس الأسرة أو الأصدقاء إذا سنحت الفرصة.

٢ ـ نشره في المساجد الصغيرة التي يقلّ المصلون فيها بإلقاء الكلمات، والبعدُ عن المساجد الكبيرة لئلَّا يُصاب الملقي بالغرور ونحو ذلك، ولئلا يغلط ويلحن فيَسقط من أعين الناس، أو يُصابَ بالإرهاب الاجتماعيّ لا قدّر الله.

٣ ـ نشره في البيت وعند الأهل والأقارب.

٤ ـ نشره عن طريق النصيحة للمقصر والعاصي.

ولنشر العلم ونقلِه للآخرين فوائد كثيرةٌ منها:

١ ـ أنه سببٌ لثبات ورسوخ العلم، وهذا مُجرّب، فالذي ينشر علمه بالقلم أو باللسان يثبت ما تعلمه.

(١) روضة العقلاء: ص٣٢.

٢ ـ أنه يفتح له ذلك علمًا لم يكن يعملُه، فالذي يُؤلف أو يُلْقي تتزاحم عليه الخواطر والأفكار، ويُفتح عليه من العلم ما لم يخطر على بالِه.

وكثيرًا ما يضطر إلى البحث عن استنباط أو مسألةٍ أو خاطرةٍ قرّرها أو سيقررها، فمن خلال بحثه سيقف على غيرها من المسائل والفوائد الكثيرة المفيدة، ومع مرور الأيام يزداد نضوجًا وروسخًا، وبهذا رسخ من قبله بفضل الله.

٣ ـ أنه من أعظم أسباب انشراح الصدر، والرضى عن النفس، فطالب العلم الذي يُمضي وقته قراءةً وحضورًا للدروس، يشعر بتأنيب الضمير، وأنَّ ما تعلمه لم يعد عليه ولا على غيره بالفائدة والمنفعة.

فإذا بدأ يزكّي علمه وينشره سيشعرُ بانشراح الصدر، وراحة البال، وسيزداد انشراحًا حينما يرى الْتفاف الناس عليه، والاستفادة من علمِه.

٤ ـ أنه سببٌ لرفع الهمّة، وزيادة النشاط، فالذي يرى ثمار عمله وجهده لا شك أنه سيزداد نشاطًا وحماسًا.

وقد يقول قائل: هل الأولى الانشغال بالدعوةِ أو بحلقات تحفيظ القرآن تعليمًا وإدارة، أم الانشغال بطلب العلم؟

الجواب: الأَوْلَى الجمع بينهما، ولا تعارض في الغالب.

فإن حصل ازدحام وتعارض، وأُجبر طالبُ العلم على تحمّل مسؤوليّات في الدعوةِ أو الحلقات كالإدارة ونحوها، فهو إمَّا أن يستمر فيها، وإمَّا أنْ يعتزلها ويتفرغ لطلب العلم، فمثل هذا له حالتان:

الحالة الأول: إذا كان قليل الاهتمام والميول لطلب العلم، ولا يجد النشاط لذلك، بل يجد النشاط للدعوةِ أو للتحفيظ والحلقات أكبر وأعظم، أو كان قليل الفهم ضعيف الحفظ، فالأولى له الانصراف إلى حلقات القرآن والدعوةِ، والقيام بحقّها.

الحالة الثانية: إذا كان شديد الاهتمام والميول لطلب العلم، ويجد النشاط لذلك، أو كان شديد الفهم قويّ الحفظ فالأولى ولا شك تقديم طلب العلم.

وقد ندم الكثيرُ من الدعاةِ وأصحاب الحلقات بعد كِبرهم على عدم تفرغهم لطلب العلم، وصرّحوا بذلك ـ وهم على خيرٍ إن شاء الله تعالى، وجزاهم الله خيرًا على ما قدّموا للأمة من نصحٍ واعتناءٍ بالشباب والشابات، بل وللكبار والأسر ـ.

وذلك أنّ طالب العلم يتقدَّم ويعلو وينمو كلَّ يوم، ويزداد علمًا وهمّةً، وذكاءً وفطنةً وحنكةً، بخلاف غيره ـ مهما كان عملُه ونفعُه ـ، سيظل على ما هو عليه، لن يزداد علمُه، ولن تتوسع مداركه.

ولا شكّ أنّ طالب العلم الموفق يتميّز بميزاتٍ قلّ أنْ يُشاركه فيها أحد:

- صاحب العلم يُلقي الكلمات والدروس والمحاضراتِ النافعة المفيدة متى شاء.
- صاحب العلم كلما طال عمرُه عظم نفعُه وبذلُه.
- صاحب العلم يستطيع تأليف الكتب وإلقاء الخطب وشرح المتون.

فمن رُزق فهمًا وحفظًا وذكاءً لا ينبغي له أنْ يَقْتُلَ مَواهِبَه وقدراتِه هذه، بل يجب أنْ يغتنمها وسوف يُهيِّئُ الله تعالى من يسير مكانه، ويقومُ بعملِه، ولا تثريب عليه، فهو انتقل من مفضولٍ إلى فاضل بالنسبة له؛ لأنه يملك مُقوِّماتِ طالب العلم وأداواتِه.

وإن لم يُبادر فإنه سيخسر قدراتِه وهمتَه وطموحاتِه مع مرور الأيام.

فلا تُقدِّم ـ أيها الموفق ـ على طلب العلم شيئًا، وإذا تعارضت

المصالح فابدأ بالمصلحة الراجحة، وتذكر قول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: لَأَنْ أنفع نفسي وحدي خيرٌ لي مِن أنْ أنفع غيري وأتضرر!! اهـ[١].

وقد يقول قائل: كيف تُفضِّل العلم على العمل، وما العلم إلا لأجل العمل؟

والجواب: أليس طلب العلم بنيّة حفظ الشريعة والردّ على أهل البدع من أعظم العمل؟

أليس طلب العلم لأجل البصيرة والعمل به ونشره من أعظم العمل؟

قال ابن الجوزيّ رَحِمَهُ اللهُ: «ومن تأمل هذه الأشياء، علم أن فقيهًا واحدًا ـ وإن قل أتْبَاعُه، وخَفَت إذا مات أشياعه ـ أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تبرُّكًا! ويشيع جنائزهم ما لا يحصى.

وهل الناس إلا صاحب أثر يتبعه، أو فقيه يفهم مراد الشرع، ويفتي به؟!

ولقد رأينا وسمعنا من العوام أنهم يمدحون الشخص، فيقولون: لا ينام الليل، ولا يفطر النهار، ولا يعرف زوجة، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئًا، قد نحل جسمه، ودق عظمه، حتى إنه يصلي قاعدًا، فهو خيرٌ من العلماء الذين يأكلون ويتمتعون!

ذلك مبلغهم من العلم.

ولو فقهوا علموا أن الدنيا لو اجتمعت في لقمته فتناولها عالم يفتي عن الله، ويخبر بشريعته، كانت فتوى واحدة منه يرشد بها إلى الله تعالى

---

(١) صيد الخاطر: ص١١٨.

خيرًا وأفضل من عبادة ذلك العابد باقي عمره، وقد قال ابن عباس رضي الله عنه: فقيه واحد أشد على إبليس من ألف عابد». اهـ[١].

وقال الإمام البغوي رحمه الله: «وفضل العلم على العبادة من حيث إنْ نفع العلم يتعدى إلى كافة الخلق، وفيه إحياء الدين، وهو تلو النبوة».

قال ابن عباس رضي الله عنه: «تدارس العلم ساعة من الليل خير من إحيائها».

وفي رواية: «تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها».

وقال قتادة رحمه الله: «بابٌ من العلم يحفظه الرجل لصلاح نفسه، وصلاحِ مَن بعده، أفضل من عبادة حول».

وقال الثوري رحمه الله: «ليس عملٌ بعد الفرائض أفضل من طلب العلم.

وعنه أيضًا: ما أعلم اليوم شيئًا أفضل من طلب العلم.

قيل له: ليس لهم نية؟ قال: طلبهم له نية».

وقال الحسن رحمه الله: «من طلب العلم يريد به ما عند الله، كان خيرًا له مما طلعت عليه الشمس».

وقال ابن وهب رحمه الله: «كنت عند مالك رحمه الله قاعدًا أسأله، فرآني أجمع كتبي لأقوم، قال مالك: «أين تريد؟»، قال: قلت: أبادر إلى الصلاة، قال: «ليس هذا الذي أنت فيه دون ما تذهب إليه إذا صح فيه النية، أو ما أشبه ذلك»».

وقال الزهري رحمه الله: «ما عُبد الله بمثل الفقه».

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «ما أعلم عملًا أفضل من طلب العلم

(١) صيد الخاطر: ص٦٧ ـ ٦٨.

وحفظه لمن أراد الله به». اهـ[١].

وأنا لا أتحدث عن ذاك الطالب الذي يذهب للدروس العلميّة دون مراجعة وقراءة وهمّةٍ ونشاط، وإنما يحضرها للبركة، أو يُطالع بعض الكتب والكتيبات دون منهجيّةٍ وخطةٍ مدروسة، فهذا ليس بالطالب الذي أعنيه، وأكثر العُبَّادِ والدعاة أفضل وأنفع للأمة منه.



(١) شرح السُّنَّة: ١/ ٢٧٩.



الخامس

العنايةُ بقبولِ الحقّ ونَبْذِ التعصب والتحزُّب

طالبُ العلم يجب عليه أنْ ينأى بنفسه عن الدخول في أيّ جماعةٍ والتعصبِ لها، بل يبحث عن الحقّ والدليل أينما كان.

قال الإمام ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما تحلى طالب العلم بأحسن من الإنصاف وترك التعصب».اهـ[1].

والواحد مِنَّا يتفاخر أمام الناس وفي المجالس بانتسابه لبشرٍ كملك أو عالم، فماذا لو انتسب لرب البشر: «ربَّاني»! ويا له من شرفٍ عظيم، وانتسابٍ كريم، وهذا ممكن بشرط: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

«أَفَادَتِ الْآيَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ رَبَّانِيًّا بِعِلْمِ الْكِتَابِ وَدَرْسِهِ وَبِتَعْلِيمِهِ لِلنَّاسِ وَنَشْرِهِ»[2].

فهنيئًا لمن اشْتَغل بالقرآن علمًا وتعليمًا كونه ربَّانيًّا؛ أي: مَنسوبًا إلى الربِّ تشريفًا وتعظيمًا.

وهذا الشرفُ لنْ تنالَه ـ يا طالب العلم ـ إلا إذا اشْتغلتَ بالقرآن علمًا وتعليمًا، ونبذتَ عنك التّعصبات والتّحزّبات، وابْتَعدتّ عن الاتهامات والدّخول في النِّيَّات، واشْتغلتَ بإصلاح حالك وأهلك ومَن حولك.

(١) نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي: ١/ ٢٦٣، طباعة: دار الحديث، مصر، ١٣٥٧هـ، تحقيق: محمد يوسف البنوري.

(٢) تفسير المنار: ٣/ ٣٠٤.

وإذا افتخر الناس بانتماءاتٍ وجماعات فانبذها، ولْتطمحْ أنْ تكون «ربَّانيًّا» وشتَّان ما بينهما!!.

فاحذر ـ يا طالب العلم ـ من التصنيفات والتحزبات، والدخول في الأمور السياسية وخاصةً عند العامة، واقْبل الحق ولو جاء من بغيض، ورُدَّ الباطل ولو جاء من حبيب.

والواجب عليك ألا تتحيَّزَ إلى جماعةٍ مُعينة، تُوالي وتُعادي لأجلها، بل خُذ من كلِّ جماعةٍ أحسنَ ما عندها، وحاول أن تُصلح ما وجدته من خطأ بقدر الإمكان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَالْبَصِيرُ الصَّادِقُ: يَضْرِبُ فِي كُلِّ غَنِيمَةٍ بِسَهْمٍ، وَيُعَاشِرُ كُلَّ طَائِفَةٍ عَلَى أَحْسَنِ مَا مَعَهَا، وَلَا يَتَحَيَّزُ إِلَى طَائِفَةٍ وَيَنْأَى عَنِ الْأُخْرَى بِالْكُلِّيَّةِ: أَنْ لَا يَكُونَ مَعَهَا شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الصَّادِقِينَ، وَدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ كَامِنَةٌ فِي النُّفُوسِ.

«سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ قَائِلًا يَقُولُ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، وَآخَرُ يَقُولُ: يَا لَلْأَنْصَارِ! فَقَالَ: **مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟**».

هَذَا، وَهُمَا اسْمَانِ شَرِيفَانِ، سَمَّاهُمُ اللهُ بِهِمَا فِي كِتَابِهِ، فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنْ يَتَدَاعُوا بِـ «الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَعِبَادِ اللهِ»، وَهِيَ الدَّعْوَى الْجَامِعَةُ، بِخِلَافِ الْمُفَرِّقَةِ، كَـ «الْفُلَانِيَّةِ وَالْفُلَانِيَّةِ».

وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ عَنِ السُّنَّةِ؟ فَقَالَ: مَا لَا اسْمَ لَهُ سِوَى السُّنَّةِ.

يَعْنِي: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ لَيْسَ لَهُمُ اسْمٌ يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ سِوَاهَا.

فَمِنَ النَّاسِ: مَنْ يَتَقَيَّدُ بِلِبَاسٍ لَا يَلْبَسُ غَيْرَهُ، أَوْ بِزِيٍّ وَهَيْئَةٍ لَا يَخْرُجُ عَنْهُمَا، أَوْ عِبَادَةٍ مُعَيَّنَةٍ لَا يَتَعَبَّدُ بِغَيْرِهَا، وَإِنْ كَانَتْ أَعْلَى مِنْهَا، أَوْ

شَيْخٍ مُعَيَّنٍ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْهُ، فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَحْجُوبُونَ عَنِ الظَّفَرِ بِالْمَطْلُوبِ الْأَعْلَى، مَصْدُودُونَ عَنْهُ، قَدْ قَيَّدَتْهُمُ الْعَوَائِدُ وَالرُّسُومُ، وَالْأَوْضَاعُ وَالِاصْطِلَاحَاتُ، عَنْ تَجْرِيدِ الْمُتَابَعَةِ، فَأَضْحَوْا عَنْهُمَا بِمَعْزِلٍ، وَمَنْزِلَتُهُمْ مِنْهَا أَبْعَدَ مَنْزِلٍ.

وَلَا يَذُوقُ الْعَبْدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، وَطَعْمَ الصِّدْقِ وَالْيَقِينِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْجَاهِلِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ قَلْبِهِ». اهـ[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك، فإنك تُعَاقب بتقليب القلب، وردِّ ما يَرِد عليك من الحق رأسًا، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأنْ قلَّب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإنك إن تهاونت به ثبَّطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبةً لك، قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٨٣].

فمن سَلِم من هاتين الآفتين، والبليّتين العظيمتين فلْيَهْنِه السلامة». اهـ[(٢)].

وسُئل الإمامُ ابن بازٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يتساءل كثيرٌ من شباب الإسلام، عن حكم الانتماء للجماعات الإسلامية، والالتزامِ بمنهجِ جماعةٍ معيَّنةٍ دون سواها؟

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥١، ٣/ ١٦٧.
(٢) بدائع الفوائد: ٤/ ١١٢٨ ـ ١١٢٩.

فأجاب بقوله: الواجب على كلِّ إنسانٍ أنْ يلتزم بالحق، قال الله ﷻ، وقال رسوله ﷺ، وألا يلتزم بمنهجِ أيِّ جماعةٍ، وإذا انتسب إلى جماعةٍ ووافقهم على الحق، من دون غلوٍّ ولا تفريطٍ فلا بأس.

أما أن يلزمَ قولَهم ولا يحيدُ عنه فهذا لا يجوز، وعليه أن يدورَ مع الحق حيث دار، إن كان الحق مع هذه الجماعة أخذ به، وإن كان مع غيرهم أخذ به، يدور مع الحق، يُعين الجماعاتِ الأخرى في الحق، ولكن لا يلتزم بمذهبٍ معينٍ لا يحيد عنه ولو كان باطلًا». اهـ[(١)].

فالحق يُقبل من أيِّ أحد، لِكونه موافقًا للدليل، فلا أثر للمتكلم به في قبوله أو رفضه، ولهذا كان أهل السُّنَّة، يقبلون ما عند جميع الطوائف من الحق، ويردون ما عندها من الباطل، بغض النظر، عن الموالي منها أو المعادي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان، ومع من كان، ولو كان مع من يُبغضه ويعاديه، وردَّ الباطل مع من كان، ولو كان مع من يحبه ويواليه، فهو ممن هدى اللهُ لما اختُلف فيه من الحق». اهـ[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]. ومن العدل فيهم: قبول الحقِّ من أيِّ أحد، سواءً من أفرادٍ أو جماعات.

ولما دلَّ الشيطان أبا هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إلى آية الكرسي، لتكون له حرزًا من الشيطان، وذلك مقابل فكِّه من الأسر، قال له النبي ﷺ: «**صدقك**

(١) مجموع الفتاوى: ٨/ ٢٣٧.
(٢) الصواعق المرسلة: ٢/ ٥١٦.

وهو كذوب». رواه البخاري[١].

فليس هناك أكذب من الشيطان، ومع ذلك، قبل منه النبيُّ ﷺ كلامه هذا، وأخبر أنه صادقٌ فيه.

قال الأديب الطنطاويُّ رَحِمَهُ اللهُ في كلامه عن رحلته لمصر[٢]: «وأنا على طريقتي التي لزمتها عمري كلَّه، لم أدخل يومًا حزبًا، ولم أنتسب إلى جماعة، ولا ربطت فكري بفكر غيري، إلَّا أن يكون الله ألزمني باتباع رأيه وإطاعة أمره، من مبلِّغٍ حكم الله، أو حاكم مسلم لا يأمر بما يخالف شرع الله، أو أب، أو استاذٍ يأمر بخير يحبه الله.

بل إنَّ المسلم يَسمع كلمة الحق من كل من ينطقه الله بها، صغيرًا كان أم كبيرًا.

أنا أسير في الخط الذي أُريتُ أنه الطريق الصحيح؛ فمن وجدتُّه يمشي معي فيه أيَّدته وناصرته، وإن حاد عنه ضالًا هديته، وإن كان متعمِّدًا نصحته وزجرته». اهـ.

واجعل من منهجك اتباع الدليل، لا اتباع طريقٍ وتبحث عن دليلٍ عليه، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ينبغي للإنسان أن يتبع الدليل، لا أن يتبع طريقًا، ويتطلب دليلها!». اهـ[٣].

واحذر من التعصب لشخصٍ بعينِه، تُوالي من والى، وتُعادي من عادى، فتقبل أقواله، وتُقدمه على غيره، بمجرد رأيه، لا لِمَا اسْتند من الأدلة على أقواله.

فإذا كان هو معذورًا لاجتهاده وبحثه عن الحق، فما عذرك أنت؟

---

(١) (٢٣١١).
(٢) كما في الذكريات: ١/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢.
(٣) صيد الخاطر: ص٦٠.

وقد نقل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن كثيرٍ من الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم أخطؤوا في اجتهادهم وفهمهم في مسائل كثيرة من مسائل الفروع كالجد مع الإخوة، وعتق أم الولد بموت سيدها، ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، وفي بعض مسائل الربا، وفي بعض نواقض الوضوء، وموجبات الغسل، وبعض مسائل الفرائض وغيرها.

فغيرهم من باب أولى، فلا يجوز تقليدِ أحدٍ تقليدًا مُطلقًا؛ لِمَا يعتريه من الخطأ والنسيان.

قال العلامة محمد رشيد رضا: «فَقَدْ رَأَيْتَ أَنَّ أَكَابِرَ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ، الَّذِينَ كَانُوا أَوْسَعَ عِلْمًا وَفَهْمًا لِلنُّصُوصِ مِنْ أُولَئِكَ الْفُقَهَاءِ، بِشَهَادَةِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ كُلِّهِمْ، قَدْ خَفِيَ عَلَى بَعْضِهِمْ مَا هُوَ مِثْلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي الْوُضُوحِ أَوْ أَشَدُّ، وَالْبَشَرُ عُرْضَةٌ لِلْغَفْلَةِ وَالذُّهُولِ، وَإِنَّ مَنْ أَنْهَضَ الْحُجَجَ عَلَى بُطْلَانِ الْتِزَامِ تَقْلِيدِ فَرْدٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، مَا ظَهَرَ كَالشَّمْسِ، مِنْ خَطَأِ أَكَابِرِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ، إِمَّا بِمُخَالَفَةِ النَّصِّ الصَّرِيحِ، وَإِمَّا بِتَنَكُّبِ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ».اهـ[(١)].

ولذلك نرى كثيرًا من العلماء لهم قولان في كثير من المسائل، بل بعضهم له أربعة أقوال في مسألة واحدة، كالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، والشافعي كانت له اجتهاداتٌ قبل أن يرحل إلى مصر، فلما ذهب هناك تراجع عن كثير منها.

فإذا كان هؤلاء الفطاحلة من العلماء يجتهدون في قولٍ ثم يتراجعون عنه، أو يُغيّرونه، فلا يجوز لأتباعهم أنْ يتعصّبوا لأقوالهم، ويُلزموا الناس وأنفسهم الأخذ بها، إلا إذا كانت مبنيّةً على دليل شرعيٍّ صحيح صريح.

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ١٦١

ولقد رأينا من يجعل قول الشيخ الفلاني حجةً، بل ويجعل قدح شيخِه في أحد العلماء أو الدعاة مبيحًا له هو أيضًا في القدح والسب، وتنفير الناس منْ هذا العالم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإذا كان الشيخُ معذورًا لاجتهاده وبحثه عن الحق، فما عذر المقلّد؟

وهذا من التعصب المذموم، وهو لا يجوز، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجوز لأحد أن يرجح قولًا على قولٍ بغير دليل، ولا يتعصب لقولٍ على قول، ولا قائلٍ على قائلٍ بغير حجة».اهـ[(١)].

وقال رحمه الله تعالى: «أما التقليد الباطل المذموم فهو: قبول قول الغير بلا حجة».اهـ[(٢)].

فلا يجوز لأحدٍ أنْ يُنافح عن قول شيخِه إلا إذا علم صحَّةَ وقوَّةَ الدليل الذي استند عليه شيخُه، فيُنافح عن الدليل الصحيح السالمِ من الْمُعارض الأقوى.

وإنّ من أعظم الْمُسلّمات في دين الإسلام: تقديمَ الكتاب والسُّنَّةِ على قولِ كلّ أحد، مهما عظم علمُه وعلتْ مكانتُه، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩].

فطاعة الله تعالى وطاعةُ رسولِه ﷺ مُقدَّمَةٌ على طاعة كلِّ أحد، حتى وإن كان خيرَ هذه الأمة أبا بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يوشك أن تنزل عليكم حجارةٌ من السماء، أقول: قال رسول الله وتقولون قال أبو بكر وعمر؟

(١) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٢٣٣.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ١٥.

فكيف لو رأى ابن عباس هؤلاء الناس، الذين يعارضون الكتابَ والسُّنَّة الثابتة، والحجة الواضحة، بقولِ مَنْ دُونهما علمًا وفضلًا.

ولذلك كان السلفُ الصالحُ رحمهم الله، ينهون عن التعصب لشخصٍ بعينِه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «النفس مشحونة بحب العلوِّ والرياسة، بحسب إمكانها، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه، ويعادي من يخالفه في هواه، وإنما معبوده: ما يهواه ويريده... وإن كان عالِمًا ـ أو شيخًا ـ أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره: حتى لو كانا يقرآن كتابًا واحدًا كالقرآن، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها، كالصلوات الخمس. فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله، والاقتداء به: أكثر من غيره، وربما أبغض نظيره وأتباعه حسدًا وبغيًا، كما فعلت اليهود...».اهـ[(١)].

تأمل قوله: «فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه، ويعادي من يخالفه في هواه»! كم هو منطبقٌ على كثيرٍ من أهل هذا العصر، فقد رأينا من يُحب ويُوالي فلانًا لأنه على منهجه ورأيه، ويُعادي ويُبغض فلانًا لأنه لا يسير على منهجه ورأيه، ولو كان موافقًا له في أصل اعتقاده ودينه ومذهبه.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «الحب لغير الله كحب النصارى للمسيح، وحب اليهود لموسى، وحب الرافضة لعلي، وحب الغلاة لشيوخهم، وأئمتهم مثل من يوالي شيخًا أو إمامًا وينفر عن نظيره، وهما متقاربان، أو متساويان في الرتبة، فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم،

(١) الفتاوى: ١٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد: الذين يوالون الشيوخ والأئمة دون البعض، وإنما المؤمن من يُوالي جميع أهل الإيمان».اهـ[(١)].

تأمل قوله: «وإنما المؤمن من يُوالي جميع أهل الإيمان»؛ أي: أن المؤمن حقًّا، الذي يُوالي جميع المؤمنين، ولا يشتغل بتصنيفهم والقدح في بعضهم، بل يعذر المخطئ، ويُثني على المصيب.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكيف يجوز لأمة محمد ﷺ أن تفترق وتختلف، حتى يوالي الرجل طائفة ويعادي طائفة أخرى بالظن والهوى؛ بلا برهان من الله تعالى، وقد برأ الله نبيِّه ﷺ ممن كان هكذا، فهذا فعل أهل البدع؛ كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين واستحلوا دماء من خالفهم، وأما أهل السُّنَّة والجماعة فهم معتصمون بحبل الله، وأقل ما في ذلك أن يفضل الرجل من يوافقه على هواه وإن كان غيره أتقى لله منه، وإنما الواجب أن يقدم من قدمه الله ورسوله، ويؤخر من أخره الله ورسوله ويحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، وينهى عما نهى الله عنه ورسوله، وأن يرضى بما رضي الله به ورسوله؛ وأن يكون المسلمون يدًا واحدة، فكيف إذا بلغ الأمر ببعض الناس إلى أن يضلل غيره ويكفره، وقد يكون الصواب معه وهو الموافق للكتاب والسُّنَّة، ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين فليس كل من أخطأ يكون كافرًا ولا فاسقًا، بل قد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، وقد قال تعالى في كتابه في دعاء الرسول ﷺ والمؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وثبت في الصحيح أن الله قال: «**فعلت**»».اهـ[(٢)].

(١) الفتاوى: ١٨/ ٣٢٠.
(٢) الفتاوى: ٣/ ٤١٩ ـ ٤٢٠.

تأمل قوله: «ليس كل من أخطأ يكون كافرًا ولا فاسقًا»، أي: وليس كل من أخطأ وله سابقةُ خيرٍ يكون من أهل البدع والأهواء، ولا يلزم أن يكون من الجماعة الفلانيّة، أو الأحزاب الضالة.

كم سمعنا في بعض المجالس من يتّهم الدَّاعيةَ والشيخَ الفلانيّ، بأنّه ينتمي لجماعةٍ مُعيّنة، أو حزبٍ مُعيّن؛ لأنّ له أقوالًا قد يكون أخطأ فيها، وهي مغمورةٌ في بحار حسناته وفضائله.

وكفى بالمرء نُبلًا أنْ تُعدّ معايبُه.

فهل يعني ذلك بأنّ يُستباح عرضُه، وتُهدَرَ كرامتُه، ويُعادى ولا يُوالى وهو من جماعة المسلمين؟ من الذي أخرجه من جماعة المسلمين الذين تجب محبّتُهم ومُوالَاتُهم؟! مَن الذي أخرجه من دائرة الإسلام الواسعة إلى دائرة الجماعات الضيّقة التي ما أنزل الله بها من سلطان؟

ولا شك أنّ هذا من إيذاءِ المؤمنين، وقد توعّد ربنا ﷻ من يُؤذي المؤمنين بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

فكيف يستهين هؤلاء بأعراض المسلمين بهذه السهولة، فأعراضُهُم ليستْ كلأً مُباحًا، فاتق الله يا من تَتَّهِمُ دُعاتنَا ومشايخنا وخطباءنا بادّعاءاتٍ باطلةٍ، وإياك أنْ تُفرّق جمعنا، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومِن أعظم أسباب جرأة بعض العوام وغيرِهم على الدُّعَاة والمشايخ، تقليدُهم لبعض المشايخ القادحين في هؤلاء، فقد يكون هذا الشيخ معذورًا، وأمَّا هو فما عذره؟

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته، ويعادي على ذلك؛ بل عليه أن يُوالي كل من كان من أهل

الإيمان، ومن عُرِفَ منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم، ولا يخص أحدًا بمزيد موالاة، إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه، ويفضل من فضله الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي؛ ولا أسود على أبيض؛ ولا أبيض على أسود؛ إلا بالتقوى**»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصًا يدعو إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها، غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم كلامًا يوالي عليه ويعادي، غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصًا أو كلامًا يفرقون به بين الأمة، ويوالون على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون». اهـ[(٢)].

تأمل هذا الكلام الثمين، فهو يُقرر قاعدتين عظيمين:

القاعدة الأولى: أنه لا يجوز لأحدٍ أنْ ينصب للأمة شخصًا يدعو إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها، غير النبي ﷺ، فلا يجوز له أنْ يجعل الشيخ الفلاني هو الحق، ومن عداه أو خالفه في بعض آرائه على الباطل.

القاعدة الثانية: أنه لا يجوز لأحدٍ أنْ ينصب للأمة كلامًا يوالي عليه ويعادي، غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة.

فكثيرًا ما نسمع من الجهال أنْ الشيخ الفلاني قال كذا، وقال عن فلانٍ كذا، وتُجعل أقوالُه حجةً على غيرِه، ولو كان غيرُه مثله في العلم والدين.

---

(١) الفتاوى: ١١/ ٥١٢.

(٢) الفتاوى: ٢٠/ ١٦٤. درء التعارض: ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

فلسان حاله يقول: كلام الشيخ حجةٌ ونصٌّ لا يجوز مُخالفتُه.

بل ويرى ذلك مبرِّرًا له في القدح في أعراض من يُخالف قوله، وغيبتهم والطعنِ في أعراضِهم، ففرقوا الأمة، وشقوا صفوف المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الظيم.

فعلى كل مسلم أنْ يتقيَ الله تعالى في أقوالِه وأفعالِه، ويسعى إلى جمعِ الكلمةِ ما اسْتطاع إلى ذلك سبيلًا.

جعلنا الله مفاتيح للخير مغاليق للشر، إنه سميعٌ قريبٌ مُجيب.

وينبغي أنْ يُوطن طالب العلم نفسه على قبول الحق والنقد، فلن تستقيم حالك ما لم تتقبل ذلك بصدر رحب.

فإنَّ من يُخْبِرك عن عيبك: مُحسنٌ إليك، ومن يُنبِّهك على أخطائك: مُتفضِّلٌ عليك، وأين نَجِدُ في هذا الزمان من يفعل هذا؟ فهذا هو الناصح حقًّا.

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رحم الله امرءًا أهدى إلي عيوبي»، وكان يسأل سلمان الفارسيَّ رضي الله عنه عن عيوبه، فلما قدم عليه قال: ما الذي بلغك عني مِمَّا تكرهه؟.

فكلُّ مَن كان أرجحَ عقلًا، وأقوى دينًا: كان أحرصَ الناس على معرفة عيوبه، وأحبَّ الناس إليه: مَن يُنبهه على تصرُّفاته وسلوكه.

قيل لبعض العلماء ـ وقد اعتزل الناس وكان مُنطويًا عنهم ـ: لِمَ امتنعت عن المخالطة؟ فقال: وماذا أصنع بأقوامٍ يُخْفون عني عيوبي.

وقد يمنع بعض طلاب العلم من قبول النقد والرد عليه ما هو فيه من المنصب والعلم والمكانة، وهذه مصيبةٌ عظيمةٌ، قال ابن الجوزي رحمه الله: «أفضل الأشياء التزيد من العلم، فإنه من اقتصر على ما يعلمه، فظنه كافيًا؛ استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا له من

الاستفادة، والمذاكرة تبين له خطأه، وربما كان معظمًا في النفوس، فلم يتجاسر على الرد عليه، ولو أنه أظهر الاستفادة، لأهديت إليه مساوئه، فعاد عنها». اهـ[1].



(١) صيد الخاطر: ص١٤٩.



السادس

العنايةُ بحفظِ اللسان، وتجنُّبِ القدح في العلماء

طالب العلم المخلص يجب عليه أنْ يَحذر من الوقوع في أعراض العلماء والمصلحين، وقد جعلَ الله لحومَ العلماءِ مَسْمُومة، وأعراضَهم محفوظةً مصونةً، ومن علامةِ محبة الله للعبد: أنْ يكون محبوبًا بين المسلمين، مقبولًا بين عباد الله المؤمنين، ومثل هذا لا تجوز مُعاداته.

وثبت في «الصحيحين»[(١)]، أنَّ النبيَّ ﷺ مُرَّ عليه بجنازةٍ فأَثْنَوا عليها خيرًا، فقال: «**وَجَبَتْ وَجَبَتْ**»، ومُرَّ عليه بجنازةٍ فأثنوا عليها شَرًّا فقال: «**وَجبتْ وَجَبَتْ**»، قالوا: يا رسولَ الله! ما قولك وَجبتْ؟ قال: «**هذه الجنازة أثنيتُم عليها خيرًا فقلتُ وَجَبَتْ لها الجَنَّةُ، وهذه الجنازة أثنيتُم عليها شَرًّا فقلتُ وَجَبَتْ لها النَّارُ، أنتُم شُهَدَاءُ الله في الأرض**».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فمن شَهِدَ له عُمُومُ المؤمنين بالخيرِ كان مِن أهل الخير، ومَن شُهِدَ له بالشَّرِّ كان من أهل الشَّرِّ».اهـ[(٢)].

فإذا رأى طالبُ العلم أحدَ العلماء والمصلحين وقع في زلَّةٍ وهو ممَّن له سابق فضلٍ وخير، فالواجب أنْ يَكفّ لسَانَه عن الوقوع في عرضه، مع بيَان الخطأ الذي وقع به بأسلوبٍ لطيف.

ومِن أعظم سمات أهل السُّنَّة والجماعة: الأخذُ بحسن الظن،

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣٦٧، ٢٦٤٢)، ومسلم: (٩٤٩) عن أنس.
(٢) جامع المسائل لابن تيمية: ٥/٢١٦.

وعدمُ تتبع الزلات، والْتماسُ الأعذار لمن ظاهره الصلاح، وسترُ العيوب لا فضحُها.

ومن سمات المبتَدِعَة وأهلِ الأهواء: القدحُ في كلِّ من يُخالفهم، ولو كان مما يسوغُ أو يُعذَرُ الاجتهاد فيه، وتتبعُ الزلات والعثرات، والقدحُ في النيات.

وقد أجمع علماءُ الأمة سلفُهَا وخلَفُها، على أنَّ مَن عُرف عنه الخيرُ والصلاح، لا يجوز القدحُ فيه إلا بدليلٍ وبرهانٍ قاطعٍ، فإنْ ثبت بالدليل خطؤه وزللُهُ، في أمرٍ يسوغُ أو يُعذَرُ الاجتهاد فيه، فلا يجوز أيضًا سبُّه والطعنُ فيه، بل يجب أنْ يُردَّ خطؤه ولا يُقدَحُ في شخصه.

قال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ: «ليس من عالمٍ ولا ذي فضلٍ إلا وفيه عيْب، ولكنْ مَن كان فضلُه أكثرَ من نقصه ذَهبَ نقصُه لفضله، كمَا أنَّه مَن غلب عليه نقصانُه ذَهب فضلُه»[1].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وكثيرٌ من مجتهدي السلف والخلف، قد قالوا وفعلوا ما هو بدعةٌ ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديثَ ضعيفةٍ ظنوها صحيحة، وإما لآياتٍ فهموا منها ما لم يُرَدْ منها، وإما لرأيٍ رأوه وفي المسألة نصوصٌ لم تبلغهم، وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]». اهـ[2].

وقال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ الكبيرَ من أئمة العلم إذا كَثُرَ صوابُه، وعُلم تحرِّيه للحق، يُغفرُ له زلَلُه، ولا نُضَلِّلُه ونَطْرَحُه، ونَنْسَى محاسنه، نعم! ولا نَقْتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبةَ من ذلك». اهـ[3].

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: ٢/٤٨.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٩/١٩١ ـ ١٩٢.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٥/٢٧١.

والعاقل ـ فضلًا عن طالب العلم ـ يتجنب أيَّ قولٍ قد يُحاسَبُ عليه يوم القيامة، ويخشى أنْ يكون مِمَّنْ قَالَ فيه ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**». متفق عليه(١).

كلمةٌ واحدةٌ تَهْوِي بِه فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ! فكيف بعشرات الكلمات؟ وكيف بالطعن والدخول في نيات أهل العلمِ والمشايخ؟.

قد يتساءل بعض طلاب العلم فيقول: إذا رأيتُ المشايخ اختلوا في تجريح وتعديل شخصٍ فما موقفي؟

الجواب عن هذا: أنْ تسكت وتحفظ لسانك، وكلام الأقران بينهم ليس بحجة، وكذلك اختلافهم في تعديل وتجريح أحدٍ، ليس أحدُهم حجةً على الآخر.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العدلُ أنَّ من رآه المسلمون صالحًا محسنًا فهو كذلك؛ لأنهم شهداء الله في أرضه، إذ الأمة لا تجتمع على ضلالة، وأن من رآه المسلمون فاجرًا أو منافقًا أو مُبطلًا فهو كذلك، وأنَّ من كان طائفةٌ من الأُمة تُضَلِّلُه، وطائفةٌ من الأُمة تُثني عليه وتبجِّلُه، وطائفة ثالثة تقفُ فيه وتتورَّع من الحطِّ عليه، فهو ممَّن ينبغي أن يعرَض عنه، وأن يُفَوَّضَ أمرُه إلى الله، وأن يستغفَرَ له في الجملة؛ لأن إسلامَهُ أصليٌّ بيقين، وضلاله مشكوك فيه، فبهذا تستريحُ ويصفو قلبُك من الغِلِّ للمؤمنين.

ثم اعلم أنَّ أهل القبلة كلَّهم، مؤمنَهم وفاسقَهم وسُنِّيَّهُم ومبتدِعَهُم

(١) البخاري: (٦٤٧٧)، ومسلم: (٢٩٨٨).

ـ سوى الصحابة ـ لم يجمعوا على مسلم بأنَّه سعيد ناجٍ، ولم يُجمعوا على مسلم بأنه شقي هالك، فهذا الصِّديق فرد الأمَّة، قد علمتَ تفرُّقهم فيه وكذلك عمر، وكذلك عثمان، وكذلك عليّ، وكذلك ابن الزبير، وكذلك الحجاج، وكذلك المأمون، وكذلك بشر المَرِيسيّ، وكذلك أحمدُ بن حنبل والشافعيّ، والبُخاريّ، والنِّسائيّ، وهلمَّ جرًا من الأعيان في الخير والشر إلى يومك هذا، فما من إمامٍ كامل في الخير إلا وثمَّ أناسٌ من جهلة المسلمين ومبتدعيهم يذمُّونه ويحطُّون عليه، وما من رأس في البدعة والتجهم والرَّفضِ إلا وله أناس ينتصرون له، ويَذُبُّون عنه، ويَدينون بقوله بهوىً وجهل، وإنما العبرة بقول جمهور الأمة الخالين من الهوى والجهل المتصفين بالورع والعلم».اهـ[(١)].

واحذر كثرة النقد للآخرين وخاصَّةً أهلَ العلم والدعاة والمصلحين، فإنّ في النقد شهوةً عجيبة، ولذةً مُغرية، فإذا سَمَحْتَ لنفسك النقد دائمًا قويت فيك هذه الشهوة، فأصبحت كثيرَ النقد، بذيءَ اللسان، لا يسلم منك إنسان، فلا تكاد ترى أمرًا لا يروق لك، أو لا يُوافق هواك ورأيك، إلا سارعت في نقده والتقليل من شأنه! وهذا والله مُلاحظٌ وموجودٌ عند بعض طلاب العلم، وحينها ينطبق عليك قول عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أحسب أحدًا تفرغ لعيب الناس إلا من غفلةٍ غفلها عن نفسه».

وقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِيَكن شغلك في نفسك، ولا يكن شغلك في غيرك، فمن كان شغله في غيره فقد مُكر به.

وطالبُ العلم من أعظم مسؤوليَّاته: جمعُ الكلمة، ووِحْدةُ الصفّ، فإذا خاض في تجريح رُموز العلم والخير، فقد أسهم في الفرقة بين المسلمين، وزرعِ الغلّ والحقد بينهم.

(١) السير «تهذيبه»: ٣/ ١١٥٨ ـ ١١٥٩.

والقدح في العلماء والدعاة، وتتبع زلَّاتهم من أعظم أسباب محق البركة.

قال الإمام الموفق ابن قدامة المقدسي عن أحدِ الْمُبَرِّزين في زمانِه: كنت أتخيل فِي الناصح أَن يَكُون إمامًا بارعًا، وأفرح بِهِ للمذهب؛ لما فضله الله به من شردْ بيته، وإعراق نسبه فِي الإمامة، وَمَا آتاه الله تَعَالَى من بسط اللسان، وجراءة الجنان، وحدة الخاطر، وسرعة الجواب، وكثر الصواب. وظننت أَنَّهُ يَكُون فِي الفتوى مبرزًا عَلَى أَبِيهِ وغيره، إِلَى أَن رأيت لَهُ فتاوى غيره فِيهَا أسد جوابًا، وأكثر صوابًا. وظننت أَنَّهُ ابتلي بِذَلِكَ لمحبته تخطئة النَّاس، واتباعه عيوبهم. ولا يبعد أَن يعاقب الله العبد بجنس ذنبه ـ إِلَى أَن قَالَ: والناصح قَدْ شغل كثيرًا من زمانه بالرد عَلَى النَّاس فِي تصانيفهم وكشف مَا استتر من خطاياهم ومحبة بيان سقطاتهم. ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حَتَّى يحب للناس ما يحب لنفسه، أفتراه يحب لنفسه بعد موته من ينتصب لكشف سقطاته، وعيب تصانيفه وإظهار أخطائه. وكما لا يحب ذَلِكَ لنفسه ينبغي أَن لا يحبه لغيره، سيما للأئمة المتقدمين، وَالْعُلَمَاء المبرزين. وَقَدْ أرانا الله تَعَالَى آية فِي ذهابه عَنِ الصواب فِي أشياء تظهر لمن هُوَ دونه». اهـ[1].

ويجب عليك ـ يا طالب العلم ـ ألا تُقحمَ نفسك فيما لا تُتْقِنُه، كالفتوى، وأمورِ السياسة.

وبعضُ طلابِ العلم يتكلفُ الفتوى والإجابةَ حينما يُسأل؛ لئلا يُظنَّ به أنه ليس بعالمٍ أو عارف.

وقد كان كبار العلماء من الصحابة والتابعين، لا يتكلفون علم ما

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٣/ ٤٣٠.

لم يعلموا، بل ينطقون بلا أعلمُ بكلِّ سهولة، ودون أدنى حرج.

فهذا ابن عمرَ رضي الله عنه سُئل عن شيءٍ فقال: «لا عِلْمَ لي به. فلما أدبر الرجل قال لنفسه: سُئل ابن عمرَ عما لا علم له به فقال: لا علم لي به»[(١)].

وهذا القاسم بن محمد رحمه الله يُسأل فيقول: «لا أدري، لا أعلم، فلما أكثروا عليه قال: والله ما نعلم كلَّ ما تَسألون عنه، ولو علمنا ما كتمناكم، ولا حَلَّ لنا أنْ نكتمكم»[(٢)].

وسأل رجلٌ مالكَ بنَ أنسٍ رحمه الله عن مسألة فقال: «لا أُحسِنها، فقال الرجل: إني ضربت إليك من كذا وكذا لِأَسألك عنها، فقال له: فإذا رجعتَ إلى مكانِك وموضِعِك فأخبرْهم أني قلتُ لك: لا أحسِنها»[(٣)].

وقد قال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ـ فيما يُروى عنه ـ: «قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسِنُ»، وهي حكمةٌ عظيمة، وعبارةٌ بليغة، حتى قال عنها الأديبُ الجاحظُ في كتابه البيانِ والتبيين[(٤)] ـ الذي جمع فيه الحكمَ والبلاغةَ والفصاحة، من العصر الجاهليّ إلى العصر الإسلاميّ ـ: «لو لم نَقِفْ من هذا الكتاب، إلّا على هذه الكلمة، لوجدناها شافية كافية، ومجْزِيةً مُغْنِيةً، بل لَوَجدناها فاضلةً عن الكِفاية، غيرَ مقصِّرةٍ عن الغاية».

وقال عنها الحافظ ابنُ عبد البر رحمه الله: «هي مِنَ الكلام العجيبِ الخطير، وقد طار الناسُ إليها كلَّ مطير»[(٥)].

---

(١) صفة الصفوة: ١/ ٢٦٨.
(٢) الحلية «تهذيبه»: ١/ ٣٥٣.
(٣) صفة الصفوة: ٢/ ٥٠٤.
(٤) ص٦١.
(٥) جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر ابن عبد البر، تحقيق: أبو عبد الرحمٰن فواز أحمد: ١/ ١٩٨.

وهذه الحكمةُ البليغةُ تعني: أنَّ قيمةَ المرء ومنزلتَه بأمرين هامَّيْن، بهما تستقيم حياةُ الفرد والمجتمع، وتسموا بهما الأمَّةُ نحو النجاح والفلاح في حاضر دنْياهم وأُخراهم:

الأمر الأول: أنْ يعمَل بجدٍّ وإخلاص فيما يُحسنه ويُتْقنه من عِلْمٍ وعَملٍ.

الأمر الثاني: ألا يخوضَ ويَعمل ويتكلَّم بغير ما يُحسنه ويُتْقنه.

فقيمةُ ومكانةُ كلِّ واحد فيما يُجيدُه ويُتْقنه من عِلْمٍ وعَملٍ، فإذا أخلَّ بما يُحْسنه ويُجيْدُه أو عمل بغير ما يُحسنه ويُتْقنه، وخاض بغير تخصُّصه ومجاله: ذهبت قيمته ومكانته، وسقط من أعيُن الناس، وصار مُعَرَّضًا لطعنهم واتِّهامِهم له، وأفْسَدَ فسادًا عظيمًا.

فقيمتك في الحياة الذي تحسنه، وميزانك في الحياة الذي تجيده، فاحْذرْ أشدَّ الحذر أنْ تخوضَ في شيء لا تُحْسنه ولا تجيدُه، فتسْقُط قيمتُك وثقتُك أمام الناس، وأعظمُ من ذلك أنْ تسقط قيمتك عند الله تعالى، إذا كان خوضُك في أمور الدين والشرع.

فقيمةُ العالمِ وطالبِ العلمِ: عِلْمُهُ الذي يُحْسنه، ولو خاض بغيرِ ما يُحسنه لأفسد وكرهه الناس.

واعلم أن من أعظم أسباب الجرأةِ على القدح في الآخرين من العلماء والدعاة والعاملين وغيرهم وغيبتهم ونقدهم:

١ ـ الدخولَ في التقنية الحديثة دون ضوابط وأهدافٍ مُحدّدةٍ واضحةٍ.

فتجد كثيرًا من طلاب العلم يستعمل وسائل التواصل الاجتماعي بكثرةٍ، ويضيف المتابعين في تويتر، ويُنشئ المجموعات الكثيرة في جواله، ويردّ على هذا، ويُناقش الآخر، ويتربص أخطاء فلان، ويُعقّب

على فلان! فيضيع عمره، وينقضي وقتُه فيما لا ينفعه في دينه ودنياه، بل ما أقربه من الإثم والزلل.

٢ ـ متابعة الأخبار بكثرة، ولو كنت ترى أنك تُتبعها لتعيش هموم المسلمين، فبحسب التجربة، بل وتجربة الكثير من طلاب العلم وغيرهم: أنها مضيعةٌ للأوقات، مُهدرةٌ للطاقات، مُجددة للأحزان، مُشتةٌ للذهن، مُكدّرة للخاطر.

والمتابع لها يصعب عليه أن يتحكم بلسانه وعاطفته، فربما جرى لسانه بكلام يندم عليه، وربما فاضت مشاعره بكلام لا يليق به، وذلك بسبب أنه رأى خبرًا أرّقه، وعجز عن احتمال السكوت، فبدار بالكلام قبل التأكد والتريث والتعقل.

ولا ينبغي للعاقل أنْ يُصغي لأي محلل سياسي، أو مذيع أو إخباريّ، فكثير من هؤلاء لهم مآرب وأهواء، يدسونها من خلال تحليلهم ونقلهم للأخبار.

بل يجب الرجوع في كلّ صغيرة وكبيرة إلى أهل الاختصاص والمعرفة والعقل، وفي مقدمة هؤلاء: العلماءُ الربانيون العارفون بالواقع.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣].

فالرجوع إلى الأكابر من أهل العلم في زمن الفتن هو الحل السليم.

وكثير من طلاب العلم لم يعشِ الأحداث ولم يُشاهدْها بنفسه، إنما سمعها من القنوات والأخبار، التي لا يشك عاقل بأنها تسير وِفْقَ سياساتٍ مُحدّدة، وأهواءٍ مختلفة، فالحيادُ فيها أندر من النادر.



السابع

العناية بالمنهجية الصحيحةُ في الطلب

بعد أنْ أنهينا الخطوات الستّةِ السابقة، وهي أهمّ شيءٍ على طالب العلم، فمَن طَلَبَ العلم على اعْوجاجٍ سيظلّ مُعوجًّا، حتى يأتي اليوم الذي ينكسر ـ والعياذ بالله ـ إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وإنه لا يكاد يُعْرَفُ أحدٌ وُفِّق للعلم، والتمكن منه، ونفع الأمة، وهو لم يَعتنِ بتصحيح قلبه وأخلاقه وسلوكه.

وما أكثر مَن طلب العلم بجدٍّ واهتمام، ولكن ما لبث أنْ تركه، وما أكثر من رأينا من أصحاب الشهادات، ومَن له باعٌ طويلٌ في العلم، تغيَّر حينما نال منصبًا من مناصب الدنيا، فساءت أخلاقُه، وذهبتْ بركةُ علمه.

وكلُّ هذا وذاك بسبب إهماله الجوانبَ الخمس السابقة أيام طلبه.

فإذا اعتنى بذلك أشدّ الاعتناء: فقد هيَّأ نفسه وقلبه لطلب العلم، وإذا اعتنى بالمنهجية اعتناءً كبيرًا فقد تمّ أمره، ورُجي نفعُه.

وكما أنَّ كلَّ فنٍّ لا يتمكن أحدٌ منه إلا بتعلمه وفق خطط مدروسةٍ، وخطواتٍ مُعدَّة، وتدرجٍ، فكذلك العلم الشرعيّ.

ومَنْ أراد أنْ يسير على المنهجية الصحيحة فعليه بالعناية بأربعة أمور:

الأول: العناية بالشيخ.

الثاني: العناية بالكتاب.

الثالث: العناية بالهدف والخطة وتنظيم الوقت.

الرابع: العناية بالكتابة والتأليف.

وإليك التفصيل:

أولًا: المنهجيّةُ الصحيحةُ في العنايةِ بالشيخ:

١ ـ اعرض ما أشكل على الشيخ.

ومن الخطأ الجسيم اقْتصار الطالب على حضور الدروس، فهي لا تُمكن طالب العلم أبدًا.

وطالبُ العلم الْمُبتدئُ لا يستغني عن الشيخ الثقة الورع، ولكنَّ لا ينبغي الإكثارُ من الدروس العلمية على حساب القراءة والبحث، فالتوازن مطلوب.

فقد رأينا كثيرًا مِمَّن يُكثر من الدروس العلمية: أصبحت هذه الدروس عادةً عنده، وقد صارحني بعضُهم بأنهم يحضرون إمَّا مُجاملةً للشيخ، وإما لنيل البركة، وإمَّا لأنه اعْتاد هو وزملاؤه عليها فلا يُمكن له أنْ يدعها أو يدع بعضها ليتفرغ للقراءة ونحوه.

والمشكلة أنَّ هؤلاء لا تربطهم علاقةٌ متينةٌ بالكتب، بل علمهم محصورٌ على ما يتلقّونه من شيخهم.

فلو قلَّل الشيخ من دروسه، وألزم طلابه بقراءة كتبٍ ـ على وجه التدرج ـ ثم مُناقشة ما قرؤوه، وأَخْذِ ما عندهم من الفوائد والمسائل والترجيحات: لكان أنفع وأفضل.

٢ ـ إيراد الأسئلة أو الاعتراضات أو الإشكالات ليس علامةً على قوة ونبوغ الطالب، بل الغالب على أمثال هؤلاء أنهم يمتلكون ثقافةً لا مَلَكة.

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «الْإِكْثَارُ مِنَ الْأَسْئِلَةِ مَذْمُومٌ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ النَّقْلُ الْمُسْتَفِيضُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ الصَّالِحِ».

إلى أنْ قال: «وَالْحَاصِلُ: أَنَّ كَثْرَةَ السُّؤَالِ وَمُتَابَعَةَ الْمَسَائِلِ بِالْأَبْحَاثِ الْعَقْلِيَّةِ وَالِاحْتِمَالَاتِ النَّظَرِيَّةَ مَذْمُومٌ، وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ وُعِظُوا فِي كَثْرَةِ السُّؤَالِ حَتَّى امْتَنَعُوا مِنْهُ، وَكَانُوا يُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابُ فَيَسْأَلُوهُ حَتَّى يَسْمَعُوا كَلَامَهُ، وَيَحْفَظُوا مِنْهُ الْعِلْمَ، أَلَا تَرَى مَا فِي «الصَّحِيح» عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلِ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ»»[(١)]. اهـ[(٢)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «عُهِدَ بِالتَّجْرِبَةِ أَنَّ الِاعْتِرَاضَ عَلَى الْكُبَرَاءِ قَاضٍ بِامْتِنَاعِ الْفَائِدَةِ، مُبْعِدٌ بَيْنَ الشَّيْخِ وَالتِّلْمِيذِ». اهـ[(٣)].

٣ ـ ثَنْيُ الركب على المشايخ والعلماء، فكل فنٍّ لا يكون عن طريق المُشافهة والمُجالسة مع أهله لن يتمكن طالبه من نيله، وبلوغ مرامه.

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «وَالْكُتُبُ وَحْدَهَا لَا تُفِيدُ الطَّالِبَ مِنْهَا شَيْئًا، دُونَ فَتْحِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ مُشَاهَدٌ مُعْتَادٌ». اهـ[(٤)].

وينبغي اختيار الشيخ العالم المتقن، قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «مِنْ أَنْفَعِ طُرُقِ الْعِلْمِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى غَايَةِ التَّحَقُّقِ بِهِ أَخْذُهُ عَنْ أَهْلِهِ الْمُتَحَقِّقِينَ بِهِ عَلَى الْكَمَالِ وَالتَّمَامِ..

وَكَلَامُنَا مِنْ ذَلِكَ فِيمَا يَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَتَبَصُّرٍ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ مُعَلِّمٍ فِيهَا..

---

(١) رواه مسلم ص١٢.
(٢) الموافقات: ٥/ ٣٧٤.
(٣) الموافقات: ٥/ ٣٩٩.
(٤) الموافقات: ١/ ١٤٨.

وَقَدْ قَالُوا: «إِنَّ الْعِلْمَ كَانَ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْكُتُبِ، وَصَارَتْ مَفَاتِحُهُ بِأَيْدِي الرِّجَالِ».

وَهَذَا الْكَلَامُ يَقْضِي بِأَنْ لَا بُدَّ فِي تَحْصِيلِهِ مِنَ الرِّجَالِ؛ إِذْ لَيْسَ وَرَاءَ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ مَرْمًى عِنْدَهُمْ، وَأَصْلُ هَذَا فِي الصَّحِيحِ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ**» الْحَدِيث، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَالرِّجَالُ هُمْ مَفَاتِحُهُ بِلَا شَكٍّ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا؛ فَلَا يُؤْخَذُ إِلَّا مِمَّنْ تَحَقَّقَ بِهِ، وَهَذَا أَيْضًا وَاضِحٌ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ أَيْضًا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ؛ إِذْ مِنْ شُرُوطِهِمْ فِي الْعَالِمِ بَأَيِّ عِلْمٍ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِأُصُولِهِ وَمَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ ذَلِكَ الْعِلْمُ، قَادِرًا عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ مَقْصُودِهِ فِيهِ، عَارِفًا بِمَا يَلْزَمُ عَنْهُ، قَائِمًا عَلَى دَفْعِ الشُّبَهِ الْوَارِدَةِ عَلَيْهِ فِيهِ». اهـ[١].

وهناك علاماتٌ متى وُجدت في الشيخ فهو الذي ينبغي أنْ تلزمه وتأخذ العلم عنه، ذكرها الشاطبي بقولِه:

إِحْدَاهَا: الْعَمَلُ بِمَا عَلِمَ؛ حَتَّى يَكُونَ قَوْلُهُ مُطَابِقًا لِفِعْلِهِ، فَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا لَهُ؛ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ لِأَنْ يُؤْخَذَ عَنْهُ، وَلَا أَنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي عِلْمٍ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ رَبَّاهُ الشُّيُوخُ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ؛ لِأَخْذِهِ عَنْهُمْ، وَمُلَازَمَتِهِ لَهُمْ؛ فَهُوَ الْجَدِيرُ بِأَنْ يَتَّصِفَ بِمَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

وَحَسْبُكَ مِنْ صِحَّةِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ أَنَّكَ لَا تَجِدُ عَالِمًا اشْتَهَرَ فِي النَّاسِ الْأَخْذُ عَنْهُ إِلَّا وَلَهُ قُدْوَةٌ وَاشْتُهِرَ فِي قَرْنِهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَقَلَّمَا وُجِدَتْ فِرْقَةٌ

(١) الموافقات: ١/ ١٤٠.

زَائِغَةٌ، وَلَا أَحَدٌ مُخَالِفٌ لِلسَّنَةِ إِلَّا وَهُوَ مُفَارِقٌ لِهَذَا الْوَصْفِ، وَبِهَذَا الْوَجْهِ وَقَعَ التَّشْنِيعُ عَلَى ابْنِ حَزْمِ الظَّاهِرِيِّ[١]، وَأَنَّهُ لَمْ يُلَازِمِ الْأَخْذَ عَنِ الشُّيُوخِ، وَلَا تَأَدَّبَ بِآدَابِهِمْ، وَبِضِدِّ ذَلِكَ كَانَ الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ كَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَأَشْبَاهِهِمْ.

وَالثَّالِثَةُ: الِاقْتِدَاءُ بِمَنْ أَخَذَ عَنْهُ، وَالتَّأَدُّبُ بِأَدَبِهِ.

فَلَمَّا تُرِكَ هَذَا الْوَصْفُ؛ رَفَعَتِ الْبِدَعُ رُءُوسَهَا لِأَنَّ تَرْكَ الِاقْتِدَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرٍ حَدَثَ عِنْدَ التَّارِكِ، أَصْلُهُ اتِّبَاعُ الْهَوَى. اهـ[٢].

وينبغي للطالب السؤالُ عن كلّ ما أشكل، ولا ينبغي أنْ يتردّد في ذلك ولو أكثر على الشيخ، بشرط مُرعاة مُناسبة الوقت ولطافة الأُسْلوب.

قال الإمام البخاريّ في صحيحه رحمه الله تعالى: «(بَابُ الحَيَاءِ فِي العِلْمِ) وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «لَا يَتَعَلَّمُ العِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ» وَقَالَتْ عَائِشَةُ: «نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ». اهـ.

قال الحافظ رحمه الله تعالى: «تَقَدَّمَ أَنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ وَهُوَ الشَّرْعِيُّ الَّذِي يَقَعُ عَلَى وَجْهِ الْإِجْلَالِ وَالِاحْتِرَامِ لِلْأَكَابِرِ وَهُوَ مَحْمُودٌ، وَأَمَّا مَا يَقَعُ سَبَبًا لِتَرْكِ أَمْرٍ شَرْعِيٍّ فَهُوَ مَذْمُومٌ، وَلَيْسَ هُوَ بِحَيَاءٍ شَرْعِيٍّ، وَإِنَّمَا هُوَ ضَعْفٌ وَمَهَانَةٌ، وَهُوَ الْمُرَادُ بقول مُجَاهِد». اهـ.

---

(١) هو الحافظ أبو محمد علي بن حزم القرطبي، عالمٌ واسع الإطلاع، لكنه جريءٌ على المخالفين من العلماء والصالحين، وطال لسانُه أئمة خالفهم في بعض آرائهم، ولأجل هذا لاقى نفرةً من مشايخ وحُكّام زمانِه.

(٢) الموافقات: ١/١٤١ ـ ١٤٢.

وصدق رحمه الله تعالى فيما قاله، وقولُه: «لِأَنَّ تَرْكَ الِاقْتِدَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرٍ حَدَثَ عِنْدَ التَّارِكِ، أَصْلُهُ اتِّبَاعُ الْهَوَى»، هو أمرٌ ظاهرٌ مُلحوظ، فالعلم لا يُؤخذ إلا بالتلقي، وقد رأينا من يبتدع وينحرف قد أخلّ بهذا الأمر، وازدرى المشايخ واقتصر على ما في الكتب.

وما أحسن ما قال بعض الجلّة: «توانيت في أوان التعلّم عن المسألة عن أشياء كانت الحاجة تحفِز إليها، والكسل يصدّ عنها، فلما كبرت أنِفْتُ من ذكرها وعرضها على مَن عِلْمُها عنده، فبقيتْ الجهالة في نفسي، وركدتْ الوحشة بين قلبي وفكري»(١).

٤ ـ في بداية طلبك للعلم لا تبحث عن الشيوخ الذين يشرحون المطوّلات، أو يُسهبون في شرحهم، ولو كانوا أكثر علمًا.

والواجب على الشيخ أنْ يكون رفيقًا بطلابه، يُعْطيهم من العلم بقدر عقولهم وسنّهم، ومن حبائل الشيطان أنه يُحسِّنُ ـ أحيانًا ـ للمعلمّ الإسهابَ والتطويل؛ ليُفسد عليه نيّته والعياذ بالله؛ ولينفّر الطلاب من بين يديه، فلْيتفطّن لذلك والله العاصم.

وقد ذكر الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ ما يجب على الشيخ أنْ يتجنبّه، وذكر منها: أنْ «يَتَبَجَّحَ بِذِكْرِ الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ لِمَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، أَوْ ذِكْرِ كِبَارِ الْمَسَائِلِ لِمَنْ لَا يَحْتَمِلُ عَقْلُهُ إِلَّا صِغَارَهَا، عَلَى ضِدِّ التَّرْبِيَةِ الْمَشْرُوعَةِ، فَمِثْلُ هَذَا يُوقِعُ فِي مَصَائِبَ..

فَلَا يَصِحُّ لِلْعَالِمِ فِي التَّرْبِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ إِلَّا الْمُحَافَظَةُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مُرَبِّيًا، وَاحْتَاجَ هُوَ إِلَى عَالِمٍ يُرَبِّيهِ». اهـ(٢).

وقال ابن بدران رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ كثيرًا من الناس يقضون السنين الطوال في تعلم العلم، بل في علم واحدٍ، ولا يحصلون منه على طائل، وربما قضوا أعمارهم فيه ولم يرتقوا عن درجة المبتدئين، وإنما يكون ذلك لأحد أمرين:

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ): ص٢٠١.
(٢) الموافقات: ١/ ١٢٤.

أحدهما: عدم الذكاء الفطري، وانتفاء الإدراك التصوري، وهذا لا كلام لنا فيه ولا في علاجه.

والثاني: الجهل بطرق التعليم، وهذا قد وقع فيه غالب المعلِّمين، فتراهم يأتي إليهم الطالب المبتدئ ليتعلم النحو مثلًا، فيشغلونه بالكلام على البسملة، ثم على الحمدلة أيامًا بل شهورًا، ليوهموه سعة مداركهم، وغزارة علمهم، ثم إذا قُدِّر له الخلاص من ذلك أخذوا يلقنونه متنًا أو شرحًا بحواشيه وحواشي حواشيه، ويحشرون له خلاف العلماء، ويُشغلونه بكلامِ مَن ردَّ على القائل، وما أُجيب به عن الرد، ولا يزالون يضربون له على ذلك الوَتَر، حتى يرتكز في ذهنه أنَّ نَوال هذا الفنِّ مِن قَبِيْلِ الصَّعْبِ الذي لا يصل إليه إلا من أوتي الولاية».اهـ[1].

وإذا رأى الطالبُ ـ المبتدئ خاصَّةً ـ مِنْ شيخِه هذا المنهجَ فلْيحذرْ مِن الجلوس بين يديه، قال ابن جماعة رحمه الله: «فإن كانتْ طريقةُ شيخِه نقلَ المذاهب والاختلاف ولم يكن له رأيٌّ واحد، (فقد) قال الغزاليُّ رحمه الله: فلْيحذرْ منه؛ فإنَّ ضرَرَه أكثرُ من النفع به».اهـ[2].

وقد نبَّه على هذا الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور فقال[3]: «يعرض كثيرًا لمن اتَّسعت معلوماتهم من المتصدِّرين للتدريس في مبدأ تصدُّرهم؛ فيدفعهم حبُّ إظهار ما لهم من المزيَّة، ثمَّ لا يلبث أن يستيقظ من بهجته ويصير إلى وضع المقادير في نصابها».

قال: وقد نبّه على هذا صديقُنا الشيخ محمد الخضر حسين فقال في مقالات رحلته الجزائريَّة: «كنت ممَّن ابتلي في درسه باستجلاب

(١) المدخل: ص٢٦٥.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: ص١٨٤ ـ ١٨٦.
(٣) في كتابه: أليس الصبح بقريب؟

المسائل المختلفة الفنون وأتوكَّأ على أدنى مناسبة حتَّى أفضى الأمر إلى أن لا أتجاوز في الدرس شطر بيت من ألفيَّة ابن مالك مثلًا، ثمَّ أدركت أنَّها طريقة منحرفة المزاج عن الإنتاج».

ثمَّ أضاف الشيخ ابن عاشور قائلًا: «وأنا أيضًا عرض لي مثل ذلك في تدريس المقدِّمة الآجروميَّة؛ فكنت آتي في درسي بتحقيقاتٍ من شرح الشاطبي على (الألفيَّة)، وفي درس (مقدمة إيساغوجي) ـ كتاب من علم المنطق ـ فأجلب فيه مسائل من (النجاة) لابن سينا ثمَّ لم ألبث أن أقلعت عن ذلك». اهـ.

٥ ـ قيِّد ما تسمعه من العلم والفوائد، فربَّما سمعتَ كلمةً أو ترجيحًا لا تراه هامًّا حينها، لكن تَجد أهميَّته ونفعه بعد حين.

٦ ـ اخْتر الشيخ الذي تجد فيه الدِّين والورع والأخلاق، مع ما عنده من العلم.

ولا تتقيَّد بالمشهورين، فقد تستفيد من غيرهم أكثر منهم، والبعض قد يُصاب بداءٍ خطيرٍ، وهو داءُ الكبر والعلوّ، فيبحث عن المشهورين للمباهاة والفخر، وهذه من أمراض القلب الخطيرة، وهي بدايةٌ غير مُوفَّقة، بل ربما تكون عائقًا وصارفًا عن مُواصلة الطلب لشؤمها.

قال ابن جماعة رَحِمَهُ اللهُ: «ينبغي للطالب أن يُقَدِّم النظر ويستخيرَ الله فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسبَ حسن الأخلاق والآداب منه، ولْيكن إنْ أمكن ممن كملت أهليته، وتحققت شفقته، وظهرت مروءته، وعُرفت عفته، واشتُهرت صيانته، وكان أحسنَ تعليمًا، وأجود تفهيمًا، ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقصٍ في ورعٍ أو دينٍ أو عدمِ خلقٍ جميل.

وليحذرْ من التقييد بالمشهورين، وترك الأخذ عن الخاملين، فقد

عدّ الغزالي وغيره ذلك من الكبر على العلم، وجعله عين الحماقة؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها..

فإذا كان الخامل ممن ترجى بركته كان النفع به أعم والتحصيل من جهته أتم». اهـ[١].

واحرص ـ يا طالب العلم ـ على الشيخ الذي يتحلى بالأخلاق الفاضلة، والآداب الجمة، وقدّمه على من هو أعلم منه إذا كان سيّء الخلق، ضيق العَطَن، قليل التواصل مع الطلاب.

فإنَّ أخلاقَ الشيخ تَسْري إلى طلابه، وتُعْديهم وتُؤثر فيهم، ويتطبّعون بطباعه من حيث لا يشعرون.

ثانيًا: المنهجيّةُ الصحيحةُ في العنايةِ بالكتاب:

الكتاب هو أعظم أنيس، وأحسن جليس، وأعزّ مطلوب، وألذّ مرغوب، لا تنضج العقولُ إلا به، ولا تُوهب المعارف بدونِه.

قال المسعودي رحمه الله في وصف الكتاب: «قد قالت الحكماء: الكتاب نعم الجليس، ونعم الذخر، إن شئت ألهتك نوادره، وأضحكتك بوادره، وإن شئت أشْجَتْكَ مواعظه، وإن شئت تعجبت من غرائب فوائدة، وهو يجمع لك الأول والآخر، والغائب والحاضر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والبادي والحاضر، وهو ميت ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء، وهو مؤنس يَنْشَطُ بنشاطك، وينام بنومك، ولا ينطق معك إلا بما تهوى، ولا نعلم جارًا أبر، ولا خليطًا أنْصَفَ، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع[٢]، ولا صاحبًا أظهر كفاية، وأقل

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: ص١٨٤ ـ ١٨٦.

(٢) أي: يُطاوعك ولا يستعصي عليك، بخلاف بعض المشايخ الذين قد لا يحتملون من الطالب زلةً أو كثرة سؤال.

خيانة، ولا أجدَى نفعًا، ولا أحمد أخلاقًا، ولا أقل خِلافًا، ولا أعوم سرورًا، ولا أسكت غِيبة، ولا أحسن موافاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أخف مؤنه منه، إن نظرت إليه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وأيد فهمك، وأكثر علمك، وتَعْرِف منه في شهرٍ ما لا تأخذه من أفواه الرجال في دهر[(١)]، وهو المعلم الذي لا يجفوك، وإن قطعت عنه المائدة لم يقطع عنك الفائدة، وهو الذي يطيعك بِالليل طاعته لك بالنهار، ويطيعك في السفر كطاعته لك في الحضر، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٥] فوصف عن نفسه أنه علم بالقلم، كإخباره عن نفسه بالكرم، وفي ذلك يقول بعض أهل الأدب:

لَمَّا عَلِمْتُ بأني لست أعجزهم ... فَوْتًا ولا هربًا قدمتُ أحتجبُ
فصرت بالبيت مسرورًا به جذلًا ... حاوي البراءة لا شكوى ولا شغب
فردًا يحدثني حقًّا وينطق لي ... عن علم ما غاب عني منهُمُ الكتب
المؤنسون هُمُ اللائي عُنِيتُ بهم ... فليس لي في جليسٍ غيرهِم أرَبُ
للّه در جليسي لا جليسهم ... فذا عشيرهم للسوء يرتقبُ»

ا.هـ[(٢)].

واعلم أنّ الكتاب لا يُعطيك أحسن ما عنده ما لم تُحسن التعامل معه، فكما أنّ الصديق أو القريب لن يُعطيك أحسن ما عنده، فكذلك الكتاب.

---

(١) صدق رَحِمَهُ الله، فالاعتكاف على الكتب حفظًا وفهمًا وتلخيصًا، أعظم وأكثر نفعًا من الدروس ومجالس العلم لغير المبتدئ، أما المبتدئ فلا بدّ أنْ يُكثر من الدروس ومجالسة العلماء، مع تخصيصٍ وقتٍ للقراءة وعدمِ العزوف عنها بحجةِ حضور الدروس.

(٢) مروج الذهب: ص٢٩٨.

وكثيرٌ من الناس يشتكي عدم الرغبة في القراءة، وذلك لعدم تعامله التعامل الصحيح مع الكتاب.

فلذا: لا بدّ من معرفة الطرق الصحيحة والنافعة في كيفية التعامل مع الكتاب.

وهذه الطرق تتلخص في إجابة ثلاثة أسئلة: لماذا تقرأ، ومتى تقرأ، وكيف تقرأ؟

وإجابتك لها بصدق: تحدد لك مدى انتفاعك بالقراءة من عدمها، ومدى صواب أو خطأ منهجك.

والإجابة الصحيحة عن هذه الأسئلة، تتلخص في الخطوات التالية:

١ ـ لا تحرص على جمع الكتب بقدر ما تحرص على الاستفادة ممَّا عندك، وجمع الكتب قد يكون مرضًا إذا أسْرف طالب العلم في ذلك.

٢ ـ أكثر مِن القراءةِ والْمُطالعةِ، وأعط العلم كلَّك، واجعله من أهم واجباتك والتزاماتك.

واعلم أنّ مِن أعظم ثمارِ الإكثارِ مِن القراءةِ والْمُطالعةِ وتنوِّعِها ما يلي:

الثمرة الأولى: أنّ الفائدةَ التي قد تُغيّر حياتك، والكلمةَ التي قد تُصلح حالك، والعبارةَ التي قد تكونُ سَبَبَ نجاتِك ورفعتك في الدنيا والآخرة، والْمُوصلةَ إلى الفردوس الأعلى من الجنة: لم تأت بعد، ولم تقع عينُك عليها، فأكثر من القراءة بنيّةٍ صادقةٍ علّك تجدها.

واعلم أنّ الله تعالى أكرم من أن يحرمك إياها إذا كنت صادقًا مُخلصًا.

وخذ شاهدًا على ذلك: أعرف طالب علمٍ قرأ بعض كتب السُّنَّة

المسندة وغيرها، ومنها صحيح البخاري وشرحه لابن حجر كاملًا، وفي آخر المجلد الثالث عشر، وتحديدًا صفحة: (٥٤١) مرّ على هذه العبارة للحافظ: «وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي آخِرِ الرِّقَاق: أَنَّ آخِر مَنْ يَدْخُل الْجَنَّة يُعْطَى مِثْل الدُّنْيَا وَعَشَرَة أَمْثَالهَا». اهـ.

فتأثر تأثرًا بالغًا بها، واستشعر نعيم الجنة، ومدى اتِّسَاعِها وكِبرها، وأنّ السموات السبع بأفلاكها ونجومها وكواكبها والأرضين السبع كلها إنما هي عرض الجنة، فكيف بطولِها وارْتفاعِها؟

وإذا كان آخر من يدخل الجنة هذا نعيمه وملكه، وهو الذي قد أفرط في الدنيا في المعاصي والذنوب والتقصير، فكيف بأصحاب اليمين والسابقين؟ ما هو ملكهم، وما هو نعيمهم؟

هكذا كان شعوره حينها، ولم يحصل له هذا الشعور ولا عشره في غيره من الأحاديث التي مرّ عليها وهي تتحدّث عن الجنة وصفتها ونعيم أهلها فيها، بل وإنَّ الحديث نفسه تكرر مرارًا في البخاري وشرحه مطولًا.

الثمرة الثانية: أنّ ذلك من أعظم أسباب توفيقك للعمل بالعلم، وقد ذكر الشاطبيّ رحمه الله تعالى: «أَنَّ الْمُثَابَرَةَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ، وَعَدَمِ الِاجْتِزَاءِ بِالْيَسِيرِ مِنْهُ؛ يجرُّ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ ويُلجئ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ: «كُنَّا نَطْلُبُ الْعِلْمَ لِلدُّنْيَا؛ فجرَّنا إِلَى الْآخِرَةِ»»[١].

الثمرة الثالثة: اللذةُ والْمُتعةُ التي تُنسيك ملاذّ الدنيا، وتُؤثرها على مُتعها وزينتها وزُخرفها، حتى إنّ منهم من يُؤثر مُواصلة القراءة على ملاذّ النفسِ ومُتعها.

---

(١) الموافقات: ١/ ١٠٣.

الثمرة الرابعة: أنْ تكتشف الفنّ الذي يُلائمُك، ويَتَنَاسب مع مُيُولك وقُدُراتِك.

فكم من طالب علم درج في علمٍ تلقّاه ممن حوله من مجتمع أو مشايخ أو أصدقاء، فلا يجد له نشاطًا وهمّة، ويمضي على ذلك سنواتٍ بلا نتائج واضحة، وما إنْ يُكثر ويُنوّع القراءة حتى تقع نفسُه على العلمِ الذي يستأنس به، ويجد مُيولًا تجاهَه، فيبرُع ويبرز فيه، وينشط له نشاطًا منقطع النظير.

وتُكسبُه مواهب كبيرة، وثمراتٍ عظيمة، ويجد نفسه ـ بعد مُضي زمنٍ ليس بأطول من الزمن الذي قضاه قبل انْكبابه على القراءة ـ مُؤلّفًا بارعًا، أو خطيبًا مِصْقعًا، ويرى هِمَّتَه تعلو، وروحَه للعلْياءِ تسمو.

بل كم أنقذ تنوّع القراءة والإكثارُ منها وانتشل أُنَاسًا غرقوا في علومٍ ضارَّة، ككتب الفلسفة والروايات والمنطق، بل وكتبٍ تزرع الشّبه والبدع، وهو قد كان يراها من أنفع الكتب وأحسنها.

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا ـ أي: الْعُلُوم ـ يَسْتَفِزُّ النَّاظِرَ اسْتِحْسَانُهَا بِبَادِئِ الرَّأْيِ، فَيَقْطَعُ فِيهَا عُمْرَهُ، وَلَيْسَ وَرَاءَهَا ما يتخذه مُعْتَمَدًا فِي عَمَلٍ وَلَا اعْتِقَادٍ، فَيَخِيبُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ سَعْيُهُ». اهـ[(١)].

الثمرة الخامسة: أنَّ كثيرًا من المسائل والعبارات التي اسْتشكَلْتَها، واستعصى عليك فهمُها في بداية الطلب أو بعده، حين مرورك عليها بعد كثرة المطالعة والبحث وطول الزمن تفهمها وتكون سهلةً عليك.

---

(١) الموافقات: ١/ ١٢٠.

ولذلك تجد مَن يُكثر القراءة الْمَنْهجيّة النافعة ـ وسيأتي تفصيلُها ـ يتميّز بمزايا كثيرةٍ من أهمّها:

أولًا: العزلة الغالبة عليه، ويستوحش من الناس، وذلك لِمَا ذاق من حلاوة العلم، ولذَّة القراءة.

ثانيًا: بُعده عن الشهرة والتّصدُّر، وانْشغالُه بنفسِه، واهتمامُه بإصلاح قلبِه، ويَتَجافى عن الأخلاق الرديئة، كالْكبر والغرور وازْدراءِ الآخرين، قنوعٌ بِمَا قُسم له.

ملاحظة: تَنُوُّعُ القراءة والإكثارُ منها قد تأتي بتنائج عكسية، وذلك إذا لم يُحسن القارئ اختيار الكتب التي يقرؤها، ولم يَسْتَشِرْ أهلَ الخبرة والتجربة والنصح.

٣ ـ نوِّع فنون العلم، وخاصةً علوم الآلة التي يعزف عنها الكثير من طلاب العلم، وخذ منها ما يكفيك، ولا تتوسعْ فيها على حساب العلوم الأهم.

٤ ـ الاهتمام بالأولويات في العلم، القرآن، ثم العقيدة، ثم السُّنَّة وفقهها، وابدأ بالْمُختصرات من كلّ فنّ.

قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ: «وقد كان الطلب في قطرنا بعد مرحلة الكتاتيب والأخذ بحفظ القرآن الكريم يمر بمراحل ثلاث لدى المشايخ في دروس المساجد: للمبتدئين، ثم المتوسطين، ثم المتمكنين:

ففي التوحيد: «ثلاثة الأصول وأدلتها»، و«القواعد الأربع»، ثم «كشف الشبهات»، ثم «كتاب التوحيد»؛ أربعتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، هذا في توحيد العبادة.

وفي توحيد الأسماء والصفات: «العقيدة الواسطية»، ثم

«الحموية»، و«التدمرية»؛ ثلاثتها لشيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى، ثم «الطحاوية» مع «شرحها».

وفي النحو: «الأجرومية»، ثم «ملحة الإعراب» للحريري، ثم «قطر الندى» لابن هشام، وألفية ابن مالك مع شرحها لابن عقيل.

وفي الحديث: «الأربعين» للنووي، ثم «عمدة الأحكام» للمقدسي، ثم «بلوغ المرام» لابن حجر، و«المنتقى» للمجد ابن تيمية؛ رحمهم الله تعالى، فالدخول في قراءة الأمّهات السِّتّ وغيرها.

وفي المصطلح: «نخبة الفكر» لابن حجر، ثم «ألفية العراقي» رحمه الله تعالى.

وفي الفقه مثلًا: «آداب المشي إلى الصلاة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ثم «زاد المستقنع» للحجاوي رحمه الله تعالى، أو «عمدة الفقه»، ثم «المقنع» للخلاف المذهبي، و«المغني» للخلاف العالي؛ ثلاثتها لابن قدامه رحمه الله تعالى.

وفي أصول الفقه: «الورقات» للجويني رحمه الله تعالى، ثم «روضة الناظر» لابن قدامه رحمه الله تعالى.

وفي الفرائض: «الرحبية»، مع شروحها، و«الفوائد الجلية».

وفي التفسير: «تفسير ابن كثير» رحمه الله تعالى.

وفي أصول التفسير: «المقدمة» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وفي «السيرة النبوية»: «مختصرها» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأصلُها لابن هشام، وفيه «زاد المعاد» لابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي لسان العرب: العناية بأشعارها، وكـ«المعلقات السبع»، والقراءة في «القاموس» للفيروز آبادي رحمه الله تعالى.

وهكذا من مراحل الطلب في الفنون». اهـ[1].

هذه هي المنهجيّة الصحيحة في التدرج، فكم ستُخرّج لنا طلابًا متمكّنين مُؤصّلين، يستطيعون ـ بمشيئة الله تعالى ـ باستيعابهم لهذه الكتب أنْ يُلْقوا المحاضرات النافعة، ويُدرّسوا العلوم المختلفة، ويخدموا أُمتهم ومُجتمعهم.

وكم ستغرس هذه الكتب في نُفوسِهم من الإيمان والسلوك والأخلاق الحميدة.

بل كم سيجني طالب العلم من قراءة بعض التفاسير النافعة، والعناية بصحيح البخاري ومسلمٍ وشرحِهما؟

ومع ذلك فهما من أواخر ما يُفكر فيهما كثيرٌ من طلاب العلم!

والله إنه من العجب أنْ يُهْمل طالب العلم ـ الذي قد يكون أمضى سنوات على الطلب ـ فهم وتدبّر وتفسير أصح كتاب على وجه الأرض، الذي ما أُنزل إلا لذلك، وأنْ يُهْمل كذلك أصح كتابين بعد القرآن: البخاري ومسلم!

ولا تُغني كتب الأحكام عنهما، كبلوغ المرام والمحرر وغيرهما، فلن تجد فيها الفوائد والنفائس العقدية والسلوكية والأخلاقية والتربويّة واللغويّة، كما تجدها فيها.

وقد خالف في هذا كثيرٌ من طلاب العلم، حيث تخصّصوا وتوسّعوا ـ بدايةَ طلبهم للعلم ـ في علوم الآلة، كالنحو، والأدب، والبلاغة، والأصول، وعلوم القرآن، وأهملوا أصولَ العلم.

فماذا ستستفيد الأُمّةُ من تفريعات هذه العلوم! وهي على حساب العلوم الأخرى المهمة والنافعة لهم ولغيرهم في علمهم وعملهم؟

---

(١) حلية طالب العلم: ص١٤.

وعلومُ الآلةِ وسيلةٌ وليستْ غايةً، فجعلُها غايةً تُصرف الأعمارُ عليها لا ينبغي.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الموَفَّق مَن طلب المهم؛ فإن العمر يعجز عن تحصيل الكل».

وقال: «أمّا العالم، فلا أقول له: اشْبع من العلم، ولا اقتصر على بعضه، بل أقول له: قدم المهم؛ فإن العاقل من قدر عمره، وعمل بمقتضاه»..

فإذا علم العاقل أنَّ العمر قصير، وأن العلم كثير، فقبيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلًا بسماع الحديث ونسخه، ليحصل كل طريق وكل رواية وكل غريب، وهذا لا يفرغ من مقصوده منه في خمسين سنة، خصوصًا إن تشاغل بالنسخ، ثم لا يحفظ القرآن، أو يتشاغل بعلوم القرآن، ولا يعرف الحديث، أو بالخلاف في الفقه..

وقد عَلِمَ قِصَرَ العمر، وكثرة العِلْم: فيبتدئ بالقرآن وحفظه، وينظر في تفسيره نظرًا متوسطًا، لا يخفى عليه بذلك منه شيء، وإن صح له قراءة القراءات السبع، وأشياء من النحو، وكتب اللغة، وابتدأ بأصول الحديث من حيث النقل، كالصحاح والمسانيد والسنن، ومن حيث علم الحديث، كمعرفة الضعفاء والأسماء، فلينظر في أصول ذلك.

ولْينظر في التواريخ، ليعرف ما لا يستغنى عنه، كنسب الرسول ﷺ وأقاربه وأزواجه وما جرى له.

ثم لِيُقْبِلْ على الفقه، فلينظر في المذهب والخلاف..

ويتشاغل بأصول الفقه وبالفرائض.اهـ[1].

(١) صيد الخاطر: ص٢٠٥ ـ ٢٠٦، ٤٠٢.

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أثناء حديثِه عن الهجرة إلى الله، بهجرانِ ما يكرهه، وإتيانِ ما يحبه ويرضاه ـ: «والذي يقضي منه العجب: أن المرء يُوَسِّع الكلام ويفرعُ المسائل في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة، ربما لا تتعلق به في العمر أصلاً.

وأما هذه الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس: فإنه لا يُحَصِّل فيها علمًا ولا إرادة! وما ذاك إلا للإعراض عمَّا خُلق له، وهذا حال من عَشَتْ بصيرته، وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال». ا.هـ(١)

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فالذي ينبغي لطالب العلم أنْ يُوْلي أصول العلوم النافعة له ولغيره اهتمام كبيرًا، ويُقدمها على فضول العلم، والذي قد لا يستفيد هو منه في عمره ولا مرةً واحدة، كاختلاف البصريين والكوفيين في دقائق النحو، واختلاف الأصوليين في بعض فروع مسائلهم.

وأنا لا أُقَلِّلُ مِن شأنِ التخصص في بعض علوم الآلة، فلولا تخصّصُ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديث، وسيبويه وابن مالك وهشام في النحو، والخليل في العروض والشعر واللغة، والجرجاني في البلاغة، وابن معين في الجرح والتعديل.. لولا تخصّص هؤلاء لخسرت الأُمّةُ علومًا كثيرة.

ولكنّ التخصّص يكون بعد اسْتيعاب الأصول.

وهؤلاء الأَئِمة لم يتخصّصوا في علمٍ واحدٍ فقط، بل عُرف عنهم من خلال تراجمهم وسيرهم أنهم درسواً وتعلّموا كثيرًا من العلوم الأخرى، ولكنّهم وجدوا أنفسهم تميل إلى علمٍ معيّن فتبحّروا فيه، وهذا هو المطلوب من طالب العلم.

(١) الرسالة التبوكية: ص٢١.

ولو قارنّا بين صاحب القراءة الشموليّة وبين المتخصص بفنّ معيّن، لوجدنا الفرق كبيرًا.

فصاحب القراءة الشموليّة يستطيع تأليف أيّ كتابٍ، وبحث أي مسألة، بخلاف غيرِه.

صاحب القراءة الشموليّة يستطيع التصدّر للإفتاء والإجابة عن أي سؤالٍ ـ إلا ما شاء الله ـ بخلاف غيرِه.

صاحب القراءة الشموليّة يُنتفع بكتبه وبحوثه؛ لأنه يهتمّ بما ينفع عموم الناس، بخلاف المتخصص بفنّ معيّن، فهو لا يُؤلف ولا يبحث ـ غالبًا ـ إلا في مجال تخصّصه، ويتناول دقائق المسائل التي لا ينتفع بها إلا بعض المتخصصين في علمِه.

٥ ـ احرص في بداية الطلب على الفن الذي تجد نفسك تميل إليه، حتى تتدرب على القراءة، وتتعلق بها وتعشقها، فأمَّا إذا بدأت بالأصعب، أو الفن الذي تنجذب إليه، فربما أُصبت بالممل والسآمة، التي قد تصدّك عن العلم.

ولذلك قيل: «يجب على طالب العلم أن يبدأ فيه بالمهم، وأن يختار من صنوفه ما هو أنشط له، وطبعه به أغنى، فإنَّ القبول على قدر النشاط، والبلوغ على قدر العناية»[(١)].

٦ ـ لِيَحذر طالبُ العلم الْمُبتدئ من التوسع عند القراءة من بحث الإشكالات والتحقق من الأحاديث ونحو ذلك، حتى لا يُصاب بالملل والفتور.

٧ ـ لا تبدأ بالكتب الطويلة أو الصعبة، وابْدأ بالأسهل والأهم.

(١) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه: ص٤٩.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «طلب العلم درجات ومناقل ورتب، لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامدًا ضل، ومن تعداه مجتهدًا زل»[(١)].

٨ ـ احذر من كتب الردود والفتاوى قبل التمكن من العلم، فمن فعل ذلك أُصيب بأربعِ مصائب:

الأولى: الإدمان عليها، وعدمُ الرغبة في قراءة الكتب التأصيليّة فلذا تجد المكثرين منها لا يحتملون القراءة في كتب المطوّلات ونحوها.

الثانية: عدمُ التمكين، فهذه الكتب لا تُمكن طالب العلم ولا تُؤسّسه ولا تبنيه، وإنما تُكْسبُه ثقافةً ضحلة، ومعلوماتٍ مُبعثرة.

الثالثة: كثرةُ الجدال والنقاش، وعندهم جُرأةٌ على بعضِ الأكابر، وذلك لأنهم تربّوا على الردود، فعندهم نفَسٌ على ذلك، ولكن لا يُنتفع ـ غالبًا ـ منهم، بل يُثيرون المسائل والإشكالات فقط.

الرابعةُ: إساءة الفهم، فالذي لم يمرّس على كتب التأصيل والمتون، قد يُسيء فهم هذه الكتب، وفهم مُراد صاحبها.

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنْ هُنَا لَا يُسْمَحُ لِلنَّاظِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَنْظُرَ فِيهِ نَظَرَ مُفِيدٍ أَوْ مُسْتَفِيدٍ؛ حَتَّى يَكُونَ رَيَّانَ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا، مَنْقُولِهَا وَمَعْقُولِهَا، غَيْرَ مُخْلِدٍ إِلَى التَّقْلِيدِ وَالتَّعَصُّبِ لِلْمَذْهَبِ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ هَكَذَا؛ خِيفَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْقَلِبَ عَلَيْهِ مَا أَوْدَعَ فِيهِ فِتْنَةً بِالْعَرَضِ، وَإِنْ كَانَ حِكْمَةً بِالذَّاتِ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ للصواب». اهـ[(٢)].

فانظر كيف نهى عن القراءة في كتابه ـ مع أنه كتابٌ علميّ تأصيليّ ـ

(١) جامع بيان العلم وفضله: ٢/١٦٦.
(٢) الموافقات: ١/١٢٤.

حَتَّى يَكُونَ رَيَّانَ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا، مَنْقُولِهَا وَمَعْقُولِهَا.

وهكذا يُقال في غيره من الكتب الصعبة، وكتب الردود والفتاوى.

٩ ـ لا تُكثر من تنويع القراءة اليومية، بل احرص على أنَّ تصبَّ جل تفكيرك واهتمامك على كتابٍ واحد حتى تُنهيه، وتعرف مُحتواه وماله وما عليه.

وفهم كتابٍ واحد واستيعابه خيرٌ من قراءة عشرات الكتب دون تأمل واستيعاب.

والعبرة بالكيف لا بالكم.

١٠ ـ اعتنِ بالكتابة والتعليق على الكتاب، وكتابة تاريخ بداية ونهاية قراءتك له.

١١ ـ عدم التَّشعب في طلب ترجيحات المحققين، والاقتصار على محقق واحد في الجملة.

قال العلامة الفقيه محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ: «أحثُّ طلبة العلم، على أن لا يتشوّفوا إلى الخلافات بين العلماء؛ لأن النفوس تحب الاطلاع، فتجد الرجل يحب أن يطلع على «المغني»، على «شرح المهذّب» ليطلع على أقوال العلماء، ولكنّ هذا بالنسبة للطالب المبتدئ ضررٌ عظيم؛ لأنه يتشتت ذهنه ولا يكون له شيءٌ يُركِّز عليه، بل يُركِّز أولًا على الأشياء المختصرة، التي ليس فيها أقوالٌ، ولا أخذٌ وردّ، ثم إذا ترعرع في العِلم، ومشى شوطًا بعيدًا، فحينئذٍ يمكن أن يطّلع على خلاف العلماء.

كذلك أوصيكم، إذا قرأتم على عدة مشايخ، أن لا تدرسوا على كل شيخٍ ما درستموه على الآخر، فمثلًا تدرسون على هذا في النحْو، هو شيخكم لا تتعدّوه إلى غيره، في التفسير! هو شيخكم، لا تطلبوا

التفسير عند غيره، في الفقه! هو شيخكم لا تطلبوا الفقه عند غيره؛ لأنكم إذا فعلتم ذلك ارتبكتم، والعلماء يختلفون في علمهم وفهمهم ومآخذهم للأحكام من أدلتها اختلافًا كثيرًا، فلا تشتّتوا أذهانكم..

لا تجعلوا لأنفسكم شيخين في فنٍّ واحد، فإنكم سوف تتعبون، وسوف تتذبذبون، ثم إذا جلستم عند واحد، وقرّر ما يقوله بالأدلة والتعليل، ثم عند آخر وقرر خلافه بما يرى أنه دليلٌ وتعليل، حينئذٍ يتوقّف الطالب! من يتبع؟ فتضيع عليه الأمور». اهـ[١].

١٢ ـ البحث والترجيح من أهم ما ينبغي على طالب العلم أن يعتني به؛ وذلك لأن فيه فوائد ومنافع كثيرةً جدًّا، منها:

أولًا: أنه أفضل طريقٍ لنيل العلم وتأصيله، فإذا مرَّتْ بك مسألةٌ أو حكمٌ فقم بالبحث عن أدلته وبراهينه، واسْتنبط الحكم بنفسك، ودقّق ونقّح ورجّح، ثم اعرضه على شيخك أو أحد العلماء أو طلاب العلم، فستخرج بفائدة عظيمة.

ثانيًا: أنه يُؤدي إلى الحرص والحماس والنشاط، والشعور بالراحة والرضى في سيرك العلمي.

ثالثًا: أنه يوصل إلى القناعة التامة لما توصلت إليه، وإفتاء الناس بمسائل توصلت إلى نتائجها بعد معرفتك بالأدلة والحجج.

ولا يُمكن أن يصل طالب العلم إلى مرحلة الإفتاء إلا بكثر البحوث والتحقيقات، التي من خلالها يتوصل إلى الحكم بدليله.

والبحث يكون لطالب العلم المبتدئ في غير قراءته المنهجية، حتى

---

(١) الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى، في افتتاحية شرح العقيدة الواسطية، الشريط الأول.

لا يتشتت، بل إذا انتهى من حفظه أو قراءته رجع إلى المسائل المشكلة عنده فَبَحَثها وتَحَقَّق منها.

ويتأكد البحث والترجيح والنظر في الأدلة لطالب العلم الذي قطع شوطًا في طلب العلم، وأمضى زمانًا في حضور الدروس والقراءة، ولا ينبغي له أنْ يُقلِّدَ شيخه ويكتفي بترجيحات وتقريراتِه، فإنّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى تحريم التقليد للقادر على الاجتهاد إلا عند العجز، فأما عند القدرة فلا يجوز له تقليد مذهبه أو شيخه، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَأَمَّا الْقَادِرُ عَلَى الِاجْتِهَادِ فَهَلْ يَجُوزُ لَهُ التَّقْلِيدُ؟

هَذَا فِيهِ خِلَافٌ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَجُوزُ حَيْثُ عَجَزَ عَنْ الِاجْتِهَادِ:

١ ـ إمَّا لِتَكَافُؤِ الْأَدِلَّةِ.

٢ ـ وَإِمَّا لِضِيقِ الْوَقْتِ عَنْ الِاجْتِهَادِ.

٣ ـ وَإِمَّا لِعَدَمِ ظُهُورِ دَلِيلٍ لَهُ.

فَإِنَّهُ حَيْثُ عَجَزَ سَقَطَ عَنْهُ وُجُوبُ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَانْتَقَلَ إلَى بَدَلِهِ وَهُوَ التَّقْلِيدُ، كَمَا لَوْ عَجَزَ عَنْ الطَّهَارَةِ بِالْمَاءِ». اهـ[1].

وقد نصّ على ذلك في مواضع أخرى منها قوله: «وَأَمَّا الْقَادِرُ عَلَى الِاسْتِدْلَالِ فَقِيلَ: يَحْرُمُ عَلَيْهِ التَّقْلِيدُ مُطْلَقًا، وَقِيلَ: يَجُوزُ مُطْلَقًا، وَقِيلَ: يَجُوزُ عِنْدَ الْحَاجَةِ؛ كَمَا إذَا ضَاقَ الْوَقْتُ عَنْ الِاسْتِدْلَالِ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَعْدَلُ الْأَقْوَالِ». اهـ[2].

فينبغي أنْ يتنبه لهذا طلاب العلم الذين أمضوا سنوات وهم يدرسون العلم عند المشايخ في المساجد والجامعات ونحوها، فكثيرٌ

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/٢٠٢ ـ ٢٠٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠/٢١٢.

منهم يكتفي بترجيحات وتقريرات شيخه، فهو لا زال مُقلّدًا، والشيخ رَحِمَهُ اللهُ يرى تحريم تقليد مثل هذا؛ لقدرته على الاجتهاد.

والواجب على المشايخ أنْ يحثّوا طلابهم على البحث والترجيح والاعتماد بعد الله تعالى على اجتهادهم وبحثهم.

وإذا بحث طالب العلم مسألة فيحق له الإفتاء فيها؛ لأن جماهير العلماء على أن الإفتاء يتجزأ، وليس من شرطه أن يكون المجتهد عالِمًا بتفاصيل الشريعة كلها، حتى قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «الْعَامِّيُّ إِذَا أَمْكَنَهُ الِاجْتِهَادُ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ جَازَ لَهُ الِاجْتِهَادُ، فَإِنَّ الِاجْتِهَادَ مُنْصِبٌ يَقْبَلُ التجزي وَالِانْقِسَامَ، فَالْعِبْرَةُ بِالْقُدْرَةِ وَالْعَجْزِ، وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ قَادِرًا فِي بَعْضٍ عَاجِزًا فِي بَعْضٍ».اهـ[1].

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الِاجْتِهَادُ حَالَةٌ تَقْبَلُ التَّجَزُّؤَ وَالِانْقِسَامَ، فَيَكُونُ الرَّجُلُ مُجْتَهِدًا فِي نَوْعٍ مِنْ الْعِلْمِ مُقَلِّدًا فِي غَيْرِهِ، أَوْ فِي بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، كَمَنْ اسْتَفْرَغَ وُسْعَهُ فِي نَوْعِ الْعِلْمِ بِالْفَرَائِضِ وَأَدِلَّتِهَا وَاسْتِنْبَاطِهَا مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دُونَ غَيْرِهَا مِنْ الْعُلُومِ، أَوْ فِي بَابِ الْجِهَادِ أَوْ الْحَجِّ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَهَذَا لَيْسَ لَهُ الْفَتْوَى فِيمَا لَمْ يَجْتَهِدْ فِيهِ، وَلَا تَكُونُ مَعْرِفَتُهُ بِمَا اجْتَهَدَ فِيهِ مُسَوِّغَةً لَهُ الْإِفْتَاءَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي غَيْرِهِ، وَهَلْ لَهُ أَنْ يُفْتِيَ فِي النَّوْعِ الَّذِي اجْتَهَدَ فِيهِ؟ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ: أَصَحُّهَا الْجَوَازُ، بَلْ هُوَ الصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ بِهِ..

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُونَ فِيمَنْ بَذَلَ جَهْدَهُ فِي مَعْرِفَةِ مَسْأَلَةٍ أَوْ مَسْأَلَتَيْنِ، هَلْ لَهُ أَنْ يُفْتِيَ بِهِمَا؟

قِيلَ: نَعَمْ يَجُوزُ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ.. وَهَلْ هَذَا إلَّا مِنْ التَّبْلِيغِ عَنْ اللهِ وَعَنْ رَسُولِهِ، وَجَزَى اللهُ مَنْ أَعَانَ الْإِسْلَامَ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ خَيْرًا، وَمَنْعُ

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

هَذَا مِنْ الْإِفْتَاءِ بِمَا عَلِمَ خَطَأٌ مَحْضٌ». اهـ[(١)].

فالخوف المفرط من الفتوى لطالب العلم الذي أمضى سنوات طويلة في العلم والدروس والبحث فيه نوعٌ من المبالغة التي ليست في محلها.

وهذا الخوف الذي يُصيب طالب العلم يُسبب له الضعف والجبن وعدم الثقة بالنفس، ويظل ناقلًا ومقلّدًا لا مُجتهدًا، تابعًا لا متبوعًا.

علمًا أنه لا يُتصور ألا يُفتي طالب علم بل ولا كثير من العامة؛ لأنّ الفتوى في الاصطلاح: الإخبار عن حكم الشرع لا على وجه الإلزام.

وهذا التعريف شاملٌ لما أخبر به المفتي مما نص عليه الكتابُ والسُّنَّةُ، أو أجمعت عليه الأمة، ولما استنبطه وفهمه باجتهاده.

فالأول والثاني لا يكاد أحد فهم الإسلام إلا قال به، فمن سُئل حكم صوم رمضان، فهل سيقول: لا أفتي؟ بل سيُجيب: واجب على المكلف المستطيع.

وهذا فتوى، لكنه لَمَّا علم الحكم بيقين جاز له الفتى.

بقي الأخير، وهو: ما استنبطه وفهمه باجتهاده، وهذا جائز لطالب العلم الذي استفرغ وسعه في بحث مسألة وفهم أدلتها وأقوال العلماء فيها.

١٣ ـ مِن أعظم ما يُفسد طالب العلم طلبه لغرائب العلم، ومسائله الدقيقة قبل تمكنه من العلم، فإنَّ مَن فعل ذلك غالبًا يُحجب عن العلم وعن التوفيق فيه.

وعند الترمذي[(٢)] أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ**».

وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «لا تعلَّموا العِلمَ لثلاثٍ: لِتُماروا به

(١) إعلام الموقعين: ٢/ ٥٣٣.

(٢) (٢٦٥٤). وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

السُّفَهاء، أو لِتُجادِلوا به الفُقهاء، أو لتصرفوا بهِ وُجُوه النَّاس إليكم، وابتغُوا بقولِكُم وفعلِكم ما عندَ اللهِ، فإنَّه يبقَى ويذهبُ ما سواهُ».

١٤ ـ لا يستغني طالب العلم عن قراءة المطولات، لكن بعد أنْ يُتْقن المختصرات مع شروحاتها.

قال ابن الجهم: ما قرأتُ قط كتابًا كبيرًا فأخلاني من فائدة، وما أحصي كم قرأتُ من صغار الكتب فخرجتُ منها كما دخلتُ.اهـ(١).

واعلم أنّ قراءةَ الكتبِ الْمُطوّلةِ كصعود الجبل الشاهق، متى ما نظرت إلى قمّته أُحبطت وفترت، ومتى ما اهتممت بموضع قدميك صعدت بنشاط وأمل وسعادة.

فالذي يصعد الجبل لا ينظر إلى القمة حتى لا يُصاب بالإحباط، ويشعر بصعوبة الصعود، وينتابه الخوف من السقوط، بل ينبغي له أنْ ينظر إلى موطئ قدمه، ويُحدث نفسه بقرب الوصول، ويعيش لحظات سيره، ولا يحمل همّ وصوله، فما هي إلا خطوات قليلة حتى يصل للقمة.

وهكذا ينبغي لِمَن يقرأ المطولات أنْ يستمع بأُولى الصفحات، ويُنهي الصفحة تلو الصفحة ويعيش معها، ويستمتع بالمعلومات التي يمر عليها، ولا ينظر إلى المجلد الذي يليه حتى يُنهي المجلد الأول، وهكذا يعيش طوال أيام قراءته بسعادة وراحة ولذة، وما هي إلا أيام قليلة ـ مُقارنة بعمره إن مدّ الله به ـ حتى يُنهي عشرات المجلدات، ويكتسبَ العلم والفهم والتمكين بحول الله تعالى.

فإن الكتب المختصرة، والمتون الصغيرة ولو مع شرحها لا تُخرج طالب علم متمكن مُؤصل، قادر على الإفتاء في النوازل، واستنباط الأحكام من الأدلة الشرعية.

---

(١) الحيوان للجاحظ: ١/ ٥٤.

فعش لحظات القراءة، ولا تحمل همَّ النهاية.

١٥ ـ احرص على كتب المتقدمين، ولا تكتف بكتب المتأخرين مهما بلغ علمهم، وهذه المرحلةُ لا يصل إليها طالبُ العلم إلا بعد قطعه مشوارًا في العلم، وأخذه عن علمائه ومشايخه، وقراءته لشروحهم وشروح المتأخرين المعروفين بالعلم والتحقيق.

وكن على يقينٍ أنك إذا قرأتَ من حيث قرأ العلماءُ الكبارُ ستصل مثل ما وصلوا، وإذا قرأت من حيث انتهوا سَتَحُوم حول ما اسْتنتجوا.

وقد ذكر الشاطبي رحمه الله تعالى أنّ من شروط مُطالعة كتب الْمُصنّفين «أَنْ يَتَحَرَّى كُتُبَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُمْ أَقْعَدُ بِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَأَصْلُ ذَلِكَ التَّجْرِبَةُ وَالْخَبَرُ»[(١)].

١٦ ـ إذا لم تفهم بعض فصول وأبواب كتاب، فاطْرق بابين:

الأول: باب من بيده خزائن السموات والأرض، فالْجأ إليه سبحانه أنْ يُعلمك ويُفهّمك، وإذا صدقت مع الله صدقك.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وَكَانَ شَيْخُنَا إِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْمَسَائِلُ يَقُولُ: «يَا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي» وَيُكْثِرُ الِاسْتِعَانَةَ بِذَلِكَ..

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ، وَجَرَّبْنَا نَحْنُ ذَلِكَ فَرَأَيْنَاهُ أَقْوَى أَسْبَابِ الْإِصَابَةِ. وَالْمُعَوِّلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى حُسْنِ النِّيَّةِ، وَخُلُوصِ الْقَصْدِ، وَصِدْقِ التَّوَجُّهِ فِي الِاسْتِمْدَادِ مِنْ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ مُعَلِّم الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ـ؛ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ مَنْ صَدَقَ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ لِتَبْلِيغِ دِينِهِ وَإِرْشَادِ عَبِيدِهِ وَنَصِيحَتِهِمْ وَالتَّخَلُّصِ مِنْ الْقَوْلِ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ،

---

(١) الموافقات: ١/١٤٨.

فَإِذَا صَدَقَتْ نِيَّتُهُ وَرَغْبَتُهُ فِي ذَلِكَ لَمْ يَعْدَمْ أَجْرًا إِنْ فَاتَهُ أَجْرَانِ. .

وَكُلَّمَا بَعُدَ عَنْ اللهِ كَثُرَتْ عَلَيْهِ الْمُعَارَضَاتُ، وَضَعُفَ نُورُ كَشْفِهِ لِلصَّوَابِ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي الْقَلْبِ، يُفَرِّقُ بِهِ الْعَبْدُ بَيْنَ الْخَطَإِ وَالصَّوَابِ». اهـ[1].

الثاني: باب العلماء الربّانيّين، ولا تطرق بابهم إلا بعد طرق الباب الأول، وكثيرٌ من طلاب العلم إذا أشكلت عليه مسألةٌ قال: لها فلان! أو سيحلّ إشكالها الشيخ الفلانيّ! وهذا خطأ، بل بادر عند انْغلاق بابٍ أو مسألة في العلم إلى الله تعالى أولًا، ثم استعن بالعلماء.

وإذا لم يُفتح عليك، أو لم تُوفق لفهمها، فتجاوزها إلى ما بعدها، وضع علامةً عليها تُشير إلى أنك لم تفهمها، وانها تحتاج إلى مُراجعة.

واعلمْ أنّ كثيرًا مِمَّا لا يُفهم أوائل طلب العلم يُفهم بعد النضج وقطعِ شوطٍ فيه.

١٧ ـ ابحث عن الكتاب الذي ينفعك، وليس النافع والْمُفيد؛ لأنه ليس كلّ كتاب مفيد ينفعك.

فالكتب النافعة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كتب صعبةٌ أو مُطوّلةٌ، فهذه لا ينبغي للمبتدئ أنْ يقربها، فلن ينتفع بها إلا شيئًا يسيرًا، وسوف تمضي عليه السنون ولم يُحصّل علمًا ينفعه ويبنيه.

وقد تكون هذه الكتب ضارةً عليه، كما قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ ـ كما تقدّم ـ.

فلا ينبغي لطالب العلم أنْ يقرأ كلّ ما أراد، بل لا بد من التدرج في الطلب، وليس العبرة بكثرة القراءة.

(١) أعلام الموقعين: ٤/ ٢٨٣.

القسم الثاني: كتبٌ سهلةٌ لا تحتاج إلى إعمال فكر، ولا تبني مَلَكةً وفهمًا، ككتب القصص الحديثة، والإغراق في كتب الرقائق.

فهذه الكتب لا تبني طالب العلم، بل الإكثار منها يُصيبه بآفات كثيرة، منها:

أ ـ عدم رسوخه في العلم، ولن تُغير فيه تغييرًا جذريًّا، بل يُعطيه ثقافةً يسيرة في علوم شتَّى.

ب ـ أنها تَحْجُبُه عن الاستفادة من كتب أهم منها.

ج ـ أنها لن تبعث فيه النشاط والهمّة في الطلب، وبقدر قلّة رسوخه يقل عمله في الغالب، كما قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: عَلَى أَنَّ الْمُثَابَرَةَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ، وَعَدَمِ الِاجْتِزَاءِ بِالْيَسِيرِ مِنْهُ؛ يجرُّ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ ويُلجئ إِلَيْهِ[1]، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ: «كُنَّا نَطْلُبُ الْعِلْمَ لِلدُّنْيَا؛ فجرَّنا إِلَى الْآخِرَةِ»..

١٨ ـ إذا بدأت قراءة كتاب تحققت منفعتَه لك، فلا تتركه وإن رأيت فيه صعوبة، تمامًا كما تفعل مع الصديق الوفي، الذي حصل منه في بعض الأيام جفاءٌ أو زلّةٌ، فإنْ تركته لأجل ذلك لن يدوم لك صديق، وإذا تركت قراءة الكتب لأجل بعض الصعوبة التي تواجهها في بعض المواضع، لن تُوفق لطلب العلم.

والنفس إذا رأت منك الحزم والعزم على إنهاء الكتاب مهما حصل، لانت وسلّمت، وإن رأت منك بعض التردد عسرت وأحجمت.

١٩ ـ اجعل الكتاب هو الصديق الأول، والحبيب المفضل، بعد حقوق الله تعالى وحقوق والديك ومن تعول.

---

(١) وهذا مُشاهد وملموس، ولذا: إذا لم يجد طالب العلم نشاطًا وهمّةً للعمل فلْيعلم أن من أعظم أسبابه عدم رسوخه في العلم، وعدم مُثابرته واجتهاده.

فإذا لم تكن علاقتك مع كتابك بهذه الْمثابة، فإنَّ دعواك بأنك طالب علم دعوى مجردة عن الدليل، وأنت تزكي نفسك، وتَدَّعي ما ليس لها.

٢٠ ـ اقرأ الكتاب قراءةً منهجيّةً صحيحة.

ولأهميّة هذا الأمر سأبسط القول فيه تحت هذا العنوان:

القراءة المنهجية: معناها وأهدافُها وكيفيتها

إنَّ الْمُتأمِّل في حال كثيرٍ من الناس ـ وخاصَّةً طلبة العلم ـ أنهم يقرؤون الكتب، ويحرصون على اقتنائها، بل وكثيرٌ منهم ملأ مكتبته بأمّهات وجُزئيَّات وتفاصيل الكتب، لكن القليل منهم مَن استفاد منها فائدةً كبيرة، واستخلص من جملتها فوائد كثيرة.

وما أكثر مَن يقرأ الكتاب من أوله إلى آخره، وعندما ينتهي منه يُغلقه ويُودِّعه وداعَ مسافر لا ينوي الرجوع، فلا هو أسْمنه ولا هو أغناه من جُوع، إن سألته عن محتواه وفحواه: عصر ذاكرته وأعطاك كلمةً أو كلمتين!، وإن سألته عن مسألةٍ كان قد قرأها في هذا الكتاب لاحت في ذكرياته طرفُها، ورأى طيفَها وخيالَها، وإن كان قريبَ عهدٍ بالكتاب قال: ذكرها فلانٌ في كتابه ورجَّح كذا وكذا، دون سردٍ للأدلة والبراهين، ومعرفةٍ لحجج المخالفين!.

وكلّ هذا لأنَّ قراءتهم فيها قصورٌ وخلل، فينبغي للقارئ كي يَخرج من الكتاب بأكبر فائدةٍ مرجوَّة: أنْ تكون قراءته مُنضبطةً وفق منهجيَّةٍ دقيقة، وكما هي الحال عند كلِّ العلماء والفطاحلة من أهل العلم.

والكثير من طلاب العلم يأخذون القراءة على أنَّها هِواية ومُتعة، فلذا لا تجدهم يتعبون في القراءة، بل متى ما أحسوا بالملل قاموا بتغيير الكتاب أو الفن.

وغالب هؤلاء يقرؤون فيما يشدّهم غالبًا، فيقرؤون في كتبِ الردود، أو القصص، أو المقالات، أو كتب التاريخ المختصرة.

ولا ينبغي الاقتصار على حضور الدروس العلمية، ومع أهميتها وعدم الاسْتغناء عنها، إلا أنها لا تكفي ولا تُغني عن القراءة، ولم يصل أحدٌ إلى مرتبة العلم والعلماء إلا بكثرةِ القراءةِ والاطلاع، فلذا ممَّا ينبغي أنْ يعتنيَ به الشيخ والمعلم أنْ يُعلق الطالب بالكتب ويُشجعه على القراءة، ولا يجعله يعتمد على الدروس فقط.

قال ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقلَّ أنْ يُفْلِحَ مَن يقتصر على الفكر والتعقل بحضرة الشيخ خاصة، ثم يتركه ويقوم ولا يُعاوده».اهـ[(١)].

وطلاب العلم لا يخلون من أقسام ثلاثة:

القسم الأول: من يعتمد على الشيخ اعتمادًا كليًّا في تلقيه وتعلّمه.

القسم الثاني: من يعتمد عليه في بداية الطلب، ويقرأ ويبحث ويحفظ أثناء تلقيه، ويحرص على الأخذ من حيث أخذ شيخُه، ثم يشرع في التعليم أو التأليف.

القسم الثالث: من يُنَوِّع القراءة والشيوخ، ويأخذ من الفنون ما يهواه ويميل إليه، ولا يصبر على فنٍّ حتى يُتقنه، ولا على شيخٍ حتى يستفيد منه أكبر فائدة.

وحالهم كحال طلاب المال بالتجارة والعمل، فهم على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يعتمد على صاحب المحل، فيُساعده في البيع ونحوه، فلا يترقى في المعرفة، وهذا يظل طول عمره في البيع مُعتمدًا على راتب من صاحب المحل.

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: ص٢٢١.

فهذا يأتي للمحل مُكرهًا؛ لحاجته للراتب الذي يأخذه، ولا يشعر بالسعادة والراحة النفسيّة، بل يدب إليه الملل والفتور.

القسم الثاني: من يعتمد على صاحب المحل لاكتساب الخبرة منه، وينشط في معرفة وتفاصيل العمل والبيع والشراء، حتى إذا أتقن العمل فتح محلًا بنفسه، واعتمد بعد الله على خبراته السابقة، وطور من أدائه وترقى في اكتساب المعرفة وتنويع البضاعات، برويَّةٍ وتحديدٍ للهدف، ورسم للخطط، فيزداد كسبًا للمال والخبرة، ويفتح المزيد من المحلات، وهكذا حتى يُصبح من كبار التجار.

فهذا لا يمل من عمله، ويشعر بالراحة والسعادة ولو واجه الصعاب والمتاعب، بل تكون عنده حلوةً، ويشعر بالثقة في نفسه.

القسم الثالث: من لا يستقر في مهنة واحدة، بل يعمل مرةً عملًا ثم يتركه إلى عمل آخر.

فهذا يضيع عمره وهو يظن أنه على شيء، ويُهدر وقته بلا فائدة تُذكر، ويكتسب ثقافة وبعض الخبرة من تنوع أعماله، ولكنه لا يستقر بيده مال يُساوي عناءه.

فانظر من أيِّ الأقسام الثلاثة أنت، والظن بك أنك من القسم الثاني.

وفقك الله وسدَّدك، وجعلكَ مُباركًا أينما كنت، ونفع بك الأمة الإسلامية، التي هي بأمس الحاجة إلى أمثالك.

فلذا لا بدّ من الجدية في القراءة، وذلك بالقراءَةِ الْمَنْهَجِيَّة.

تعريف القراءة المنهجية:

هي القراءَةُ في علم من العلوم، وفق خُطَّةٍ مدروسة، وأهدافٍ واضحة، وكيفيَّةٍ مُعيَّنة.

أهدافها:

١ ـ المتعة واللذة في القراءة، فإذا كان من يقرأ قراءةً حُرَّةً يستمتع ويتلذَّذ في قراءته، فمن يقرأ قراءة منهجية لا تُوصف لذَّته، ولا تُحدُّ مُتعتُه.

٢ ـ الخروج من القراءة بنتيجةٍ مُرضيةٍ على المدى القريب والبعيد.

٣ ـ التَّمَكُّن من العلم، والرسوخُ فيه.

٤ ـ الثقة في النفس، وحصولُ الارتياح، وعدم تأنيب الضمير من كثرة القراءة دون فائدةٍ تُذكر.

فمثَلُ مَن يقرأ قراءةً منهجية ومَن يقرأ قراءةً عشوائية: كمثل رجلين ابْتدأ كلُّ واحدٍ منهما بناء بيتٍ له، فأحدهما بدأ البناء دون سابِق خبرة، ودون وضع خريطةً للبيت، ودون اسْتشارةِ أهل الخبرة، فهو يبني بتخبُّطٍ وارْتجال، ولا يعرف متى ينتهي، ولا كيف سيكون البيت إذا انتهى، وممَّا لا شك فيه، أنه سيخسر مالًا أكثر بسبب كثرة التعديلات، وستتأثر نفسيَّتُه بسبب عدم وضوح معالم البيت، وفي النَّهَاية سيكون بيتُه رديئًا غيرَ مُنظّمٍ، وربما تعرض للصُّدوع والوهن مع مرور الوقت.

وأما صاحبُه فقد بدأ البناء بِخِبْرَةٍ كافِيَةٍ، ووضعَ خريطةً دقيقةً ومرسومَةً للبيت، واسْتشارَ أهل الخبرة والفنّ، فهو يبني بثقة، ويمشي بخُطَّة، ويعرف متى سَيَنْتَهي، وكيف سيكون البيت إذا انتهى، وممَّا لا شك فيه، أنه سيُوفِّرُ مالًا أكثر من الأول، ولن تتأثر نفسيَّتُه، وفي النَّهَاية سيكون بيتُه مُتناسقًا جيِّدًا صالحًا للسكن.

٥ ـ القدرةُ على التأليف والكتابة بطلاقة وسرعةٍ وثقة.

كيفيتها:

يتبيَّن من التعريف كيفيتها، وذلك باتخاذ الخطوات التالية:

١ ـ الاقتصارُ على علمٍ وفنٍّ واحدٍ بقدر الإمكان، حيث يُركز

طالب العلم وقته وهمَّه فيه، دون التذبذب والتشتت في تنويع القراءة.

٢ ـ وضعُ خُطَّةٍ مدروسة، ووضعُ الخطة يكون كالتالي:

أ ـ معرفةُ ما ستقرؤه خلال مدةٍ من الزمن، أشهر أو سنوات، مع ترتيب الكتب حسب الأولوية والأهمية، بعد اسْتشارة أهل الخبرة.

ب ـ وضعُ زمنٍ محدد لهذه المدة بقدر الإمكان.

ج ـ التفرغُ يوميًّا بحسب الوقت الذي يُسمح للقارئ، وكلَّما كان أطول كان أفضل.

٣ ـ وضعُ أهدافٍ واضحة مُحدَّدة، والهدف لا يكون عامًا، بل خاصًّا جدًا.

٤ ـ القراءةُ بكيفيَّةٍ وطريقةٍ مُعينة، لا عشوائيةٍ، وذلك كالتالي:

أ ـ عندما تُمسك بالكتاب لا بدّ أن تتوفَّر فيك شخصيَّتان خلال قراءتك:

١ ـ شخصية الطالب الْمُتلهِّف.

وبهذه الشخصيّةِ تحرص على الاستفادة من مادة الكتاب، وتسعى إلى فهمها وضبطِها.

٢ ـ شخصية الْمُحقِّق الْمُحترف.

وبهذه الشخصيّةِ تزداد تركيزًا وانتباهًا، حيث لا تُمرر كل كلامٍ يُقال، فحينها ينشط ذهنك وعقلك للفهم والنظر والتأمل.

فعندما تبدأ القراءة: تعرَّف على المؤلِّف، لتعرف قيمةَ المؤَلَّف، وراجع الفهرس بعجالة لتعرف مضمون الكتاب، ثم ابدأ قراءته بتمهل وتدقيق في العبارات والجمل، ولا تتجاوز فائدةً إلا فهمتها، ولا فصلًا إلا وعيتَه، ولا تبدأ بقراءة الكتاب وبالُك مشغول، ولا تنْتهِ منه حتى

تُتمَّه، وقيِّد كلَّ ما اسْتفدته من الفوائد واللَّطائف، وهذا من أهم الأمور، **والتقييد له طريقتان:**

الطريقة الأولى: التلخيص، وهو أن تلخص الكتاب تلخيصًا دقيقًا، وتسْتخرج زبدةَ الكتاب ولُبَّه، وكأنك ستقدمه لمن يقرؤه بعدك ويستفيد منه. وهذه الطريقة هي أفضل وأنفع.

والتلخيصُ دَيدنُ كثيرٍ من العلماء السابقين، والأئمَّةِ الربانيين، فهذا العلَّامةُ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لخَّص كتاب مِنْهاج السُّنَّة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وسمى تلخيصه: المنتقى، والشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لخص عدة كتب منها: الشرح الكبير مع الإنصاف، وسمَّاه: «مختصر الإنصاف والشرح الكبير». والعلامة البعليّ اختصر «الفتاوى المصرية» لابن تيمية رحمهما الله.

وهذا لعلمهم رحمهم الله تعالى أن اختصار الكتب أنفع لهم ولغيرهم مِن بعدهم.

واختصار الكتب له فوائد كثيرة جدًّا، من أهمها:

أ ـ حفظ كتب الأصل، وتظهر هذه الثمرة في الزمن السابق: والأمثلة لذلك كثيرة، أكتفي بمثالين:

ـ كتاب «سيرة ابن هشام»، التي هي اختصارٌ لسيرة ابن اسحاق المفقودة.

ـ كتاب «غاية النهاية» لابن الجزري اختصار ـ مع زيادات أخرى كما أوضح ذلك في المقدمة ـ لكتاب «طبقات القُرَّاء» لأبي عمر الداني المفقود.

ب ـ أنه يُعين على ضبط وإتقان الملخص.

الطريقة الثانية: كتابة الفوائد على شكل نقاط، وتضع أمام كل فائدة رقم الصفحة، ليسهل عليك الرجوع إليها.

وأسهل وأحسن وسيلةٍ للقيام بهاتين الطَّريقتين في العصر الحاضر: أن تجعل الحاسب الآلي أمامك، وتفتح الكتاب الإلكتروني من خلاله، وهو في الغالب موجودٌ في المكتبة الشاملة، وتجعل الكتاب الورقيّ بين يديك، فعندما تمر بفائدة، أو تريد تلخيص كلام: اذهب إلى مكانه في الحاسب، وقم بنَسْخه ولصقه في ملف الوورد، بدلًا من الكتابة باليد.

وافتح مُجلَّدًا لكلِّ كتابٍ تقرؤه، ثم افتح فيه نوافذ وورد، واكتب على كلّ ملفٍ ما يلي:

١ ـ منهجيَّة المؤلِّف في كتابِه وشخصيَّتَه وعقيدتُه.

ثم دوِّن فيه ما يتعلق بهذا الموضوع، وأعط قلمك الحرية والمرونة.

٢ ـ نبذة تعريفيّة عن الكتاب، وهي شبيةٌ بالفهرس، وهذه تكتبها أثناء قراءتك له، ولا تعتمد أبدًا على جهد المحقق.

٣ ـ فوائد في العقيدة.

٤ ـ فوائد في الفقه.

٥ ـ فوائد في السلوك.

وعلى حسب الكتاب تفتح نوافذ أكثر، فإن كان يهتمّ بالحديث فضع ملفًا اسمه: فوائد حديثيّة ونحو ذلك.

٦ ـ المآخذ العلمية حول الكتاب.

٧ ـ ترجيحاتُه.

٨ ـ ردودُه واسْتدراكاتُه.

وخلال القراءة تأمَّلْ في أيِّ كلامٍ وترجيح لم تقتنعْ منه، وتأملْ في أيِّ حديثٍ فيه ضعفٌ أو كلام ـ والْمُحقّق يُبَيِّنُ ذلك غالبًا ـ وإذا مرّ بك تصحيفٌ أو خطأٌ مطبعيٌّ فعدِّله وصوِّبه.

واكتب في الحاشية ما تراه من تعليقٍ أو تعقيب أو تصحيحٍ ـ دون البحث في المراجع الأخرى، وإلا لطال الزمن في القراءة ـ.

وكن جريئًا وواثقًا خلال تعليقك وترجيحك وإبداءِ رأيك.

فإنّ كلّ قولٍ لا نصّ فيه من الشرع الحكيم قد يقبل الأخذ والردّ، والْمُصَنّفون في الأصول والفقه والنحو وعلوم القرآن لم يجعلوا كتبهم حُجّةً يجب الرجوعُ إليها في كلّ شيء، ولم يدّعوا أنّ أقوالهم كلّها صحيحةً لا يجوز الاستدراك عليها.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في مقدّمة كتابه: «الموافقات»[١] شارحًا الغرض من تأليفه: «لِيَكُونَ ـ أَيُّهَا الْخِلُّ الصَّفيُّ، وَالصَّدِيقُ الْوَفِيُّ ـ هَذَا الْكِتَابُ عَوْنًا لَكَ فِي سُلُوكِ الطَّرِيقِ، وَشَارِحًا لِمَعَانِي الْوِفَاقِ وَالتَّوْفِيقِ، لَا لِيَكُونَ عُمْدَتَكَ فِي كُلِّ تَحَقُّقٍ وَتَحْقِيقٍ، وَمَرْجِعَكَ فِي جَمِيعِ مَا يعنُّ لَكَ مِنْ تَصَوُّرٍ وَتَصْدِيقٍ؛ إِذْ قَدْ صَارَ عِلْمًا مِنْ جُمْلَةِ الْعُلُومِ، وَرَسْمًا كَسَائِرِ الرُّسُومِ، وَمَوْرِدًا لِاخْتِلَافِ الْعُقُولِ وَتَعَارُضِ الْفُهُومِ، لَا جَرَمَ أَنَّهُ قَرَّبَ عَلَيْكَ فِي الْمَسِيرِ، وَأَعْلَمَكَ كَيْفَ تَرْقَى فِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَإِلَى أَيْنَ تَسِيرُ، وَوَقَفَ بِكَ مِنَ الطَّرِيقِ السَّابِلَةِ عَلَى الظَّهر، وَخَطَبَ لَكَ عَرَائِسَ الْحِكْمَةِ ثُمَّ وَهَبَ لَكَ الْمَهْرَ.

فقدِّمْ قَدَم عَزْمِكَ؛ فَإِذَا أَنْتَ بِحَوْلِ اللهِ قَدْ وَصَلْتَ، وَأَقْبِلْ عَلَى مَا قِبَلك مِنْهُ؛ فَهَا أَنْتَ إِنْ شَاءَ اللهُ قَدْ فُزْتَ بِمَا حَصَّلْتَ، وَإِيَّاكَ وَإِقْدَامَ الْجَبَانِ، وَالْوُقُوفَ مَعَ الظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ، وَالْإِخْلَادَ إِلَى مُجَرَّدِ التَّصْمِيمِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ، وَفَارِقْ وَهَد[٢] التَّقْلِيدِ رَاقِيًا إِلَى يَفَاعِ الِاسْتِبْصَارِ». اهـ.

---

(١) ص١١ ـ ١٢.

(٢) الوهد الأرض المنخفضة.

تأمل قولَه: «لَا لِيَكُونَ عُمْدَتَكَ فِي كُلِّ تَحَقُّقٍ وَتَحْقِيقٍ، وَمَرْجِعَكَ فِي جَمِيعِ مَا يعنُّ لَكَ مِنْ تَصَوُّرٍ وَتَصْدِيقٍ»؛ أي: لا تجعل ما في كتابي هو العمدةُ والمرجع الوحيد، بل هو عونٌ لك على الفهم وتقريبِ والعلم، فقد يكون فيه ما يُخالف المذهب الحقّ، وليس كلامي نصًّا من القرآن والسُّنَّة لتحتج به على غيرك، ولكن اسْتئنس به واسْتشهد به.

ثم تأمل كيف نهاك عن التقليد له أو لغيرِه.

وقد «جعل التقليد بمنزلة الوَهَد، وهو المنخفض من الأرض؛ لأن المقلد لا يرمي ببصره إلى ما وراء قول متبوعه أو فعله، فكأنه في منحدر تمنعه جوانبه من أن يمد عينه إلى ما خلفه من ملكوت السموات والأرض، وجعل التبصر بمكان اليفاع وهو الرابية؛ لأن المتبصر لا يقف بفكره جامدًا على ما يسبق إليه من قول أو يشهده من عمل، بل ينفذ ببصيرته الصافية إلى مرتقى الاستدلال؛ فكأنه قائم على أكمة يشرف منها على مواقع شتى ليتخير من بينها أبدع المناظر وأصفى الموارد»[١].

والمقصودُ أنْ تعلّق في الحاشية ما تراه وما تُلاحظه.

فعندها ستشعر بانتماءٍ عجيبٍ نحو الكتاب، ومحبةٍ وشغفٍ لإكماله، وفائدةٍ عظيمة عند الانتهاء منه.

وتكون بهذا قدْ وَعَيْت الكتاب وفهمتَه، ويسهل عليك اسْتحضاره والرجوع لأيّ جزءٍ من أجزائه.

ولعله يكون سببًا لجعله مادةً علميَّةً ينتفع بها غيرُك، أو يكون حافزًا لك على اختصار وتهذيب أُمَّهات الكتب التي تشقُّ على طلبة العلم قراءتُها وجردُها.

---

(١) حاشية محمد الخضر حسين ومحمد حسين مخلوف في تحقيقهما للكتاب.

وافعل هكذا في كلٍّ كتابٍ تقرؤه.

واعلم أنّ القراءة المجردة لا تُفيد إلا بنسبةٍ قليلة جدًّا، ما لم يصحبها عملٌ وجهد، كالتلخيص والعمل بالعلم والتعليم ونحو ذلك.

وإليك ما خلصت إليه نتائج الأبحاث المعاصرة حتى من غير المسلمين، حيث قرَّروا هذا الهرم:



فنُلاحظ أنّ التعلم غيرِ النشط لا يعتمد على عمل، بل هو قراءة أو استماع أو رؤية، ونسبة حصول العلم منه ضئيلةٌ جدًّا.

أما التعلم النشط الذي يعتمد على العمل مثل: التحدث وهو يشمل المناقشة والحوار، والكتابة، وهو يشمل التلخيص والتأليف: فنسبة حصول العلم منه كبيرةٌ.

وتزداد النسبة إذا قارنها عملٌ وتطبيق، وهو المسمّى بالمهارات.

وتعظم النسبة إذا قام بنقل ما تعلمه إلى الآخرين، ويشمل شرح المتون، وإلقاء الخطب والمحاضرات والكلمات ونحوها.

فهذا يُؤكد أنّ القراءة العادية غير نافعةٍ نفعًا كبيرًا، فينبغي على العاقل أنْ يبحث عن القراءة النافعة الْمُثمرة.

وبعض طلاب العلم حينما يُسأل عن مسألة يستحضر أنَّ ابن القيم أو شيخ الإسلام أو غيرهما قد ذكر هذه المسألة، وإن كانت قراءته للكتاب من عهد قريب أجاب بأنه رجح كذا وكذا!، دون استحضار للأدلة والبراهين، وهذا بسبب قراءة السرد، أو تسجيل الفوائد بشكل مختصر.

وقد قُمتُ بِتجرِبةٍ لمعرفة مُعدل القراءة اليومية والشهرية والسنوية:

- في كل (١٠) دقائق: قراءة ما يُقارب (٥) صفحات.
- في كل ساعة: قراءة ما يُقارب (٣٠) صفحة.
- في كل أسبوع - إذا كان معدل القراءة ساعة فقط -: قراءة ما يُقارب (٢١٠) صفحة.
- في كل شهر: قراءة ما يُقارب (٨٤٠) صفحة.
- في كل سنة: قراءة ما يُقارب (١٠٨٠٠) صفحة، هي عددُ صفحات كتاب فتح الباري تقريبًا!!.

هذا على أقل تقدير، وبعض الكتب قد يستغرق قراءتها في (١٠) دقائق: (٦ أو ٧) صفحات، وكلما اتَّسع وقت قراءتك ازْداد مُعدل قراءتك.

لو حذفنا شهرًا كاملًا وهو عبارة عن أوقاتٍ نقتطعُها من القراءة

للتأمل في معلومةٍ مرت بنا، أو التعليق عليها، أو بحثها بشكلٍ سريع، لكانت النتيجة: (١٠) آلاف صفحةٍ تقريبًا.

وطالب العلم المبتدئُ في القراءة الجادة المنهجية، أرى أن أولَ ما يبتدأ به من الفنون: السلوكُ والأدب، وشيءٌ من النحو وقواعد الإملاء.

فكتب السلوك التي تعتني بالقلب وتصحيحه، وتخليصه من الشوائب، هي الأساس والأصل، ولن يُوفق طالب العلم قبل تصحيح نيته، وإصلاح قلبه.

وكُتب الأدب لما فيها من الخفة والسهولة: تُمرن طالب العلم على القراءة، وتكسر حاجز الصعوبة، وإذا تمرن على القراءة ـ وهو الأهم في هذه المرحلة ـ سهل عليه قراءة كتب العقيدة والتفسير وشروح الأحاديث ونحوها.

ومن فوائدها أيضًا: أنها تُثري ملكة الكتابة والخطابة والتأليف، فمن اعتاد عليها بدايةً سهلتْ عليه إلقاء الكلمات بأسلوبٍ أدبي شيِّق، وسهل عليه إعداد الخطب والمقالات، والبعض يستهين بهذا الأمر في البداية، فحينما تمضي به السنون يجد صعوبةً في ذلك.

قال الأديب العلامةُ مُصطفى الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «ما أرى أحدًا يفلح في الكتابة والتأليف إلا إذا حكم على نفسه حكمًا نافذًا بالأشغال الشاقة الأدبية، كما تحكم المحاكم بالأشغال الشاقة البدنية، فاحكم على نفسك بالأشغال الشاقة سنتين أو ثلاثًا في سجن الجاحظ أو أدب أبي العلاء المعرى أو غيرهما». اهـ.

---

(١) في رسالته إلى محمود أبي ريّة في المجموع الذي نشره محتويًا على رسائل الرافعي، وذكره مُحَقِّقُ كتابِهِ وحيُ القلم.

وأما كتب النحو وقواعد الإملاء السهلة الخالية من التعقيد: فهي من أهم الأمور في البداية، حتى لا يقرأ قراءةً خاطئةً لا تليق بطالب العلم، ولا يكتب كتابةً سقيمةً تُزري به، ولأنه إذا بدأ بها فإنه ستتكون عنده مَلَكةٌ عظيمة بعد ذلك، حيث إنه كلما قرأ أو كتب اسْتحضر قواعد الإعراب والإملاء فتُصبح عنده ملكةٌ كبيرةٌ مع مرور الزمن.

أما إذا أخرها فإنه سيقرأ ويكتب خطأً، ومع مرور الأيام ستكون عادةً عنده، وسيصعب عليه تعديلُها ولو حاول، وأعرف من قرأها ودرسها على متخصصين بعد سنوات الطلب، وقَرَأَ شرحَ الألفيَّةِ وتفاصيلَها، وغيرَها من المتون، فلم يُفلحْ في التخلُّصِ من الأخطاء الإملائيَّةِ والنحوية، وتَعُدُّ عليه إذا تكلم أخطاءً كثيرةً فاحشة، وإذا كتب في تغريدةٍ ونحوها يُخطئ كثيرًا!.

وقد كان من رأي ابن العربي المالكيّ رحمه الله تعالى، ألا يخلط الطالب في التعليم بين علمين، وأنْ يُقدِّم تعليم العربية والشعر والحساب، ثم ينتقل منه إلى القرآن.

ويرى الشاطبيّ رحمه الله تعالى أنْ الأولى للطالب أنْ يبدأ بالعربية، كما نصّ على ذلك في كتابه الموافقات[(١)].

ومما جرَّبْتُه مع طلابي وأثمرت ثمارًا مُباركة، أني وضعت لهم خطة زمنية مقدارها خمسة أشهرٍ، ألتقي بهم كل أسبوع أو أسبوعين، أشرح ما يحتاج إلى شرح، وأسألهم وأختبرهم عن الكتب التي قررتها لهم.

وإليك ـ أخي طالب العلم الجادّ ـ منهجيّةٌ مُقترحةٌ خلال خمسةِ

(١) ص١٠٢.

أشهرٍ، حاول أنْ تُطبّقها بصبرٍ ومُصابرةٍ، وستجد ـ بحول الله تعالى ـ نتيجةً تسرّك:

الشهر الأول: / / إلى / /

الأسبوع الأول: كتاب الفوائد لابن القيم.

الأسبوع الثاني: تهذيب كتاب مدارج السالكين لابن القيم.

الأسبوع الثالث: الإملاء.

الأسبوع الرابع: مَتْنُ الآجرومية وشرحُه.

الشهر الثاني: / / إلى / /

الأسبوع الخامس: إكمال مَتْنِ الآجرومية وشرحُه.

الأسبوع السادس: العروض.

الأسبوع السابع: ديوان الشافعي.

الأسبوع الثامن: روضة العقلاء لابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشهر الثالث: / / إلى / /

الأسبوع التاسع: إعداد مقالاتٍ، (وهي عبارة عن مُمارسة ما قرأه تطبيقيًّا ـ نحويًا ولغويًا وإملائيًّا وأدبيًا ـ، وهي من أعظم الفوائد في هذه المنهجيّة).

الأسبوع العاشر والحادي عشر: عيون الأخبار لابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الأسبوع الثاني عشر: صيد الخاطر لابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشهر الرابع: / / إلى / /

الأسبوع الثالث عشر: إكمال صيد الخاطر.

الأسبوع الرابع عشر: الجواب الكافي.

الأسبوع الخامس عشر: إعداد خُطب كاملة.

ثم ابدأ بعدها بالمرحلة الثانية.

ومن الثمرات التي سيجنيها طالبُ العلم بعد قراءته لهذه الكتب غير ما تقدم:

١ ـ حب القراءة محبَّةً عظيمةً، حتى يستغرق جل وقته في القراءة دون مللٍ وكلل.

٢ ـ المرانُ والاعتيادُ على المنهجية المنضبطة في القراءة.

٣ ـ الثقة والراحة النفسية من تأنيب الضمير من طول المدة في طلب العلم دون تحصيلٍ كبيرٍ.

٤ ـ القدرة على التأليف، وكتابة المقالات والخطب بسرعة ومرونة، وليس معنى ذلك أنْ يكون قادرًا في البداية، ولكنّ هذه المرحلة تُعطية الآلية والقدرة على ذلك بعد تمكُّنِه من العلم.

٥ ـ القدرة على الإلقاء دون تحضير مُسْبَقٍ، بأسلوبٍ جميل.

وهذه الكتب لا تستغرق خمسة أشهر بالكثير، بشرط أنْ يلتزم الطالب بالوقت التزامًا دقيقًا، ويكون شديد التركيز والتدبر، ويقرأ المقرر عليه: ٣٠ صفحة يوميًّا، ولو وضع ربع ساعة للاحتياط فهو أحسن.

ثم إذا تجاوزها الطالب بإتقان ينتقل لفنٍّ آخر بعد ذلك ـ على ما قرَّره الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى.

وهي كافيةٌ ـ إذا اسْتُغلِّتْ بشكلٍ صحيح ـ في ترسيخ طالب العلم، **ولكن المشكلة في العوائق، ومن أبرزها:**

١ ـ عدم الجدية والمنهجية المنضبطة.

٢ ـ عدم الصبر والْمُصابرة.

٣ ـ اسْتِعْجالُ النتائج.

٤ ـ تشتت الفكر والعمل، فكثرةُ الأشغال، وكثرة البرامج تصدّ وتحرم من الاستفادة الكبيرة.

ومن أعظم ما يُضر بطالب العلم: كثرة الرحلات والجَلسات، فلن يعطيك العلمُ من نفائسه ودُرَرِه إذا لم تُعْطِه نفسَك وعقلَك ووقتَك، وكثيرًا من مالك.

٥ ـ عدمُ الاسْتعداد للبذل والتضحية.

ثالثًا: المنهجيّةُ الصحيحةُ في العنايةِ بالخطة والوقت وتحديد الهدف:

١ ـ لا بد من تحديد الهدف تحديدًا دقيقًا، ولا يكون ذلك إلا بوضوح الخطة، والتقيد بالزمن في السير عليها، والتأكد منها ما بين الفينة والأخرى.

إنّ أي إنسان يريد النجاح في الدين أو الدنيا: لابدّ له من ثلاثة أمور:

الأول: أنْ يضع له هدفًا يسعى إليه.

الثاني: أنْ يضع له خطةً دقيقةً يسير عليها.

الثالث: أنْ يُلْزِم نفسه على التطبيق، ويُحاسب نفسه على التقصير.

وإنّ وضع الخطط والأهداف، لا يستغني عنه أحدٌ يعيش في هذا الكون.

بل إنّ الدول تتفاوت قوةً واقتصادًا وتطوّرًا، بحسب أهدافها وخططها وأنظمتها.

فكيف لعاقل أنْ يسير في هذه الحياة غافلًا عن أهميّة التخطيط؟

والأهدافُ والْغاياتُ لها ضوابطُ كي تكونَ صحيحةً ونافعة، ومنْ أهمّ ضوابطها:

أولًا: أنْ تكون الأهدافُ معقولةً مُمْكنة، فبعض الناس قد يأخذُه الحماس فيضعُ خططًا لا يُطيقها، ولا يُمكنه الْمُداومةُ عليها.

ثانيًا: أنْ تكون بعد دراسةٍ واسْتشارة أهل الخبرة، ولا ينبغي للعاقل أنْ ينفرد وحده بذلك، لا سيّما إذا كان العمل الذي سيقوم به مُتعدّيًا إلى غيره، كتربية الأبناء، فلا بد أنْ يُشرك أبناءه وأهله بذلك.

ثالثًا: أنْ تكون مُحدّدةً ودقيقة، لا عامَّةً وواسعة.

وأضرب لذلك مثالًا للآباء والأمهات:

هدفهم الأول: صلاحُ أبنائهم، وهذا الهدف يشترك به الجميع حتى الكفار.

وأخص منه: حفظهم من رفقاء السوء، والعناية بصحتهم وعقولهم. وهذا هدف أخصّ من الأول، لكنه عامٌّ وواسعٌ أيضًا.

وأخص منه ـ وهو الهدف الصحيح السليم ـ: أنْ يضع الوالدان والأبناء خطّةً يتفقون عليها، ترسم ما سيحصّلونه في العام كلّه، وتُحدّد الأوقات اليوميّة للمذاكرة واللعب، والأوقاتَ المخصصةَ لمشاهدة التلفاز والتقنية الحديثة، ومُحاسبةَ المقصر، والاتفاقَ على نظام الجوائز للملتزمين، والعقابِ للمقصرين والمخالفين.

وأضرب مثالًا لك ـ يا طالب العلم ـ: هدفُك الأسمى رضا الله تعالى، وهذا يشترك به الجميع.

وأخص منه: تحصيل العلم النافع، بالقراءة وحضور الدروس النافعة.

وأخص منه ـ وهو الهدف الصحيح السليم ـ: أنْ ترسم لنفسك جدولًا يوميًّا، تسير عليه عامَك كلَّه، يُحدّد فيه الوقت الذي تقرأ فيه، ونوع العلم والفنّ الذي ستدرُسُه، والفائدة التي تجنيها من هذا العلم.

هكذا تكون الأهدافُ واضحةً دقيقةً عمليّة.

فالذي لا يرسمُ لنفسِه هدفًا يطمح إليه، وغايةً يتطلّع إليها: لن ينجح في حياته، ولن يُوَفَّقَ في مَعادِه.

فحاسب نفسك ـ يا طالب العلم ـ واسألها: ماذا أنجزتُ خلال عامٍ مضى؟ وماذا أنتجتُ، وماذا اكْتسبتُ من عِلْمٍ وعملٍ صالح؟

فقد أمضيت عامًا كاملًا على طلبك للعلم ـ إن لم يكن أكثر ـ ماذا أكسبك هذا العلم، وهل أثَّرَ فيك عملًا ونفعًا وبذلًا؟

لماذا طالبُ العلم الفلانيُّ برع وأنتج ونفع الناس، ورسخ في العلم، وقد يكون طَلَبَ العلم في مدّةٍ وزمنٍ أقل.

فإلى متى ستظل تسير على غير نظامٍ ولا خطّةٍ صحيحة؟

وإلى متى ستظل على طريقتك الخاطئة تتقلب بين الكتب والشيوخ، وتُعاني من ضيق الوقت، وقلّة الإنتاج والتحصيل؟

واعلم أنَّ مِن أعظم سعادة الإنسان ولَذَّتَه أنْ يُتْقن الخطة التي رسمها لنفسِه، ويُحقق الهدف الذي يصبو إليه.

فَمِنْ أسعد أيام التاجر إذا أنجز عمله اليوم حسب الخطة التي رسمها ويطمح لها، بأن يربح ربحًا كبيرًا، ويُطور ويُنجز عمله دون خلل.

وأسعد أيام المزارع ذاك اليوم الذي يُنجز فيه عمله بإتقان، ويحصد الزرع بيُسْرٍ ودون معوِّقات، أو يحصد ما زرعه دون عاهات فيه.

وأتعس أيامهم: اليوم الذي يخسرون فيه الأوقات بدون فائدةٍ

ومنفعة، أو اليوم الذي تكاسلوا فيه عن العمل بلا حاجةٍ صارفةٍ عنه.

وهكذا طالب العلم: أسعد أيامه ذاك اليوم الذي يجتهد فيه قراءةً وبحثًا وحفظًا، ويُرهق نفسه يومه كلّه، فما إنْ يخلد يستيقظ من نومِه الذي سبقه العناءُ والتعب إلا وشعر بلذةٍ تأتي على تعبه كلّه فتُنسيه إياه، وتتبخر معاناته في لحظةٍ واحدةٍ من هذه اللذة التي لا يشعر بها إلا من أحس بها.

وأشقى أيامه: تلك الأيام التي يقضيها بلا كدٍّ وجدّ، بل يمْضيها بالسهر مع الأقران، أو بكثرة السفريات التي لا هدف من ورائها، أو بتشتت القراءة وتنوعها دون هدفٍ واضحٍ منها.

٢ ـ خصِّص كلَّ زمنٍ بفنٍّ مُعَيَّنٍ، واحذر من القراءة غيرِ الْمُنضبطة والْمُنظمة، كحال مَنْ يَخْبِطُ خَبْط عَشْوَاء[١]، فهي تجعلك مثقَّفًا لا متمكنًا، عارفًا لا عالِمًا.

فمثلًا: تخصص الإجازة الصيفية بالقراءة في كتب الأصول، وقُبيل رمضان تقرأ في باب الزكاة والصيام، ويكون رمضان للقرآن وتفسيره.

قال الطناحي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من انقطع إلى شيء أتقنه».اهـ[٢].

٣ ـ لا بد من العناية بالحفظ قدر الْمستطاع، والمحفوظات تبقى غالبًا، بخلاف القراءة المجردة، وخاصة التي تكون بدون تكرار.

«وأوَّل الحفظ شديدٌ يشق على الإنسان، ثم إذا اعتاد سهل، وكان العلماء يقولون: كلُّ وعاءٍ أَفرغت فيه شيئًا فإنه يضيق إلا القلب، فإنه كلَّما أُفرغ فيه اتسع»[٣].

---

(١) مثلٌ يُضْرب لمن يمضي في أَمْرِه وعملِه عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ.
(٢) في اللغة والأدب: ١/ ١٨٢.
(٣) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه: ص٧١.

قال أبو هلال العسكري رحمه الله تعالى: «وإذا كان ما جمعتَه من العلم قليلًا وكان حِفْظًا كثرت المنفعة به، وإذا كان كثيرًا غير محفوظ قلَّت منفعته». اهـ[(١)].

ولكن إذا وجد طالبُ العلم مشقّةً وضعْفًا في الحفظ فلا ينبغي أنْ يُجبرها على ما لا تُطيق، ولْيقتصر على الحفظ اليسير.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقليلُ المحفوظ مع الدوام أصلٌ عظيمٌ، ومن لم يجد نشاطًا للحفظ فليتركه، فإنَّ مكابرةَ النفس لا تصلح». اهـ[(٢)].

٤ ـ نظّم جدول يومك، واعلم أنّك لن تَتَمَكَّنَ من العلْم إلا إذا رتّبتَ وقتك ترتيبًا دقيقًا.

ولا تجعل مُراجعتك أو حفظك أو قراءتك حسب فراغك، بل اجعل لكلٍّ من ذلك وقتًا لا يتغيّر، إلا للضرورة الْملحّة، أو الحاجة الْمهمّة.

واعلمْ أنّ عمل ساعةٍ في الصبح خيرٌ وأعظمُ مِن عملِ ساعاتٍ في منتصف النهار، فقد صحّ عَنْ صَخْرٍ الغَامِدِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**».

قَالَ: وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً، أَوْ جَيْشًا، بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ.

وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلًا تَاجِرًا، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ تِجَارَةً بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ»[(٣)].

---

(١) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه: ص٧٤.

(٢) صيد الخاطر: ص٦٨.

(٣) رواه الإمام أحمد: (١٩٤٣٠)، والترمذيّ: (١٢١٢)، وابن ماجه: (٢٢٣٦)، وأبو داود: (٢٦٠٦). وحسنه الترمذيّ وصححه الألبانيّ في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان: (٤٧٣٥).

فأهمّ الأوقات التي لا تتنازل عنها أبدًا: قُبيل وبعد الفجر، فهو الوقت المبارك، وهو الذي إنْ داومتَ على اسْتغلاله، سترى البركة في جميع أوقاتك.

وسأقترح عليك تنظيمًا عامًّا، وانْظر ما يُناسبك فَسِرْ عليه:

اليوم	قبل الفجر	بعد الفجر (إلى شروق الشمس)	الضحى (نصف ساعة على الأقل)	الظهر (نصف ساعة على الأقل)	العصر (ساعة على الأقل)	المغرب	العشاء (ساعة على الأقل)
الأحد	قيام الليل	القرآن	حفظ متن	تحضير أو مراجعة درس	القراءة المنهجيّة	حضور درس أو جلسة مع الأهل	قراءة أو بحث أو مُذاكرة
الاثنين	قيام الليل	القرآن	مُراجعة متن	تحضير أو مراجعة درس	القراءة المنهجيّة	حضور درس أو جلسة مع الأهل	قراءة أو بحث أو مُذاكرة
الثلاثاء	قيام الليل	القرآن	حفظ متن	تحضير أو مراجعة درس	القراءة المنهجيّة	حضور درس أو جلسة مع الأهل	قراءة أو بحث أو مُذاكرة
الأربعاء	قيام الليل	القرآن	مُراجعة متن	تحضير أو مراجعة درس	القراءة المنهجيّة	حضور درس أو جلسة مع الأهل	قراءة أو بحث أو مُذاكرة
الخميس	قيام الليل	القرآن	حفظ متن	تحضير أو مراجعة درس	القراءة المنهجيّة	حضور درس أو جلسة مع الأهل	قراءة أو بحث أو مُذاكرة
الجمعة	قيام الليل	القرآن	مُراجعة متن	تحضير أو مراجعة درس	القراءة المنهجيّة	حضور درس أو جلسة مع الأهل	قراءة أو بحث أو مُذاكرة
السبت	قيام الليل	القرآن	مُراجعة متن	راحة: (لأهلك ولنفسك عليك حقّ)	راحة: لأهلك ولنفسك عليك حقّ	راحة: لأهلك ولنفسك عليك حقّ	راحة: لأهلك ولنفسك عليك حقّ

رابعًا: المنهجيّةُ الصحيحةُ في العنايةِ بالكتابة والتأليف:

إنَّ الكثير من الخطباء والمؤلفين ـ إما تأليف رسالة ماجستير أو دكتوراة أو غيرها ـ في بداية أمرهم، وأوائل شأنهم، يجد الواحد منهم صعوبة بالغة في الإعداد، فيُصيبه الإعياء والإجهاد، وذلك لأنه اعتقد أن الأسلوب الناجع في البداية، أنْ يبدأ بالتسلسل من المقدمة والعناصر، فلا يتعدى عنصرًا حتى يتقن الذي قبله، فيمكث في المقدمة مدَّةً طويلة، ثم تأتيه الحيرة في الترتيب والتنسيق، وبأيِّ شيء يبدأ... وهكذا فهو في حَيص بيص[1]، ويعيش في حيرةٍ وتذبذب، ويستولي عليه الخوف والقلق.

وإنّ التأليف والبحث والتلخيص فنٌّ ومهارةٌ، إن لم تقم بتنميتها وتطويرها وتفعيلها وإلا ماتت، وصعبت عليك مع مرور السنين ولو كنت كثير الحفظ والمطالعة، وحادّ الفهم والذكاء.

وإنّ الكتابة من أعظم أسباب تنشيط الهمّة، ولذا تجد من اتجه للتأليف من أحرص الناس على وقته.

وأعرف رجلًا عنده ضعفٌ في الهمّة في طلب العلم، وعدم تنظيم وقته، فنُصِحَ بأنْ يُؤلّف ويُكثر من البحث، فاسْتجاب لذلك، وأخبرني بعد مُدّةٍ بأنه رأى تغيّرًا كبيرًا عن ذي قبل، وفتح الله عليه في العلم والتأليف والبحث.

وهل يُطيق طالبُ علمٍ حياةً بدون إدمانِ بحث، أو تعليمٍ ونشرِ ما عَلِمَه، أو تأليف؟

وهل يرضى بأنْ يُوصَف بأنه طالبُ علمٍ بدون واحدةٍ منها؟

---

(١) في القاموس المحيط: البَيْصُ: الشدَّةُ والضيقُ. ووَقَعَ في حَيْصَ بَيْصَ.. أي: اخْتِلاطٍ لا مَحِيصَ عنه.

وإذا أردت البحث والتأليف ـ يا طالب العلم ـ فعليك بالخطوات التالية:

١ ـ فكِّرْ فيما تُريد طرحه أو كتابته، فاكْتب ما يُمليه عليك خاطرك، دون العناية بالألفاظ والبلاغة والمقدمة، ودوِّن ما عَلِقَ بمُخيلتك مباشرةً دون تأجيل؛ لأنك لو أجلّت لضاعت الأفكار والخواطر.

٢ ـ لا تُحاول جلب الأفكار والعناوين، بل اكتب ما يخطر في بالك.

٣ ـ اكتب ما يجول في البال مباشرة، دون حرصٍ على تدقيق ما تكتبه أو تُمْليه، ودون الرجوع إلى المصادر، بل إذا تذكرت أثناء كتابتك كلامًا لأحد العلماء فأشِر إليه في الحاشية، وإذا انتهيت بعد ذلك فارجع إلى المصدر وانْقله.

٤ ـ ثم ابدأ بجمع المادة العلمية والكتب التي تتحدث عن موضوعه، وانْظر في الفهرس باحثًا عن الموضوع الذي تُريده، فاقرأ فيه، ثم ابحث في المكتبة الشاملة، وفي الشبكة العنكبوتية كذلك.

فما وجدته متعلقًا ببحثك فخذه وضعه في ملف الوورد، وهكذا تجمع بدون ترتيب وتحقيق، ودون تعليق وتدقيق.

مع الرجوع إلى ما أشرت إليه أثناء الكتابة ممّا خطر لك من أقوال العلماء ونحوهم.

٥ ـ ثم إذا انتهيت من كتابة ما في الخاطر، وانتهيت من جمع المادة العلمية من الكتب ونحوها، فارجعْ إلى ما كتبته، ثم ابدأ بترتيب العبارات، وانتقاء الألفاظ، وصحح اللغة والإملاء.

فإذا بك قد جمعتَ مادةً علميةً كبيرةً وواسعةً، فحينها قم بطباعةِ بحثك، ثم ابدأ بقراءته بتمعُّنٍ وتأنٍّ.

فاحذف ما لا يُناسب، وعَلِّق على بعض الكلام، ورتِّب بين عناصره.

وهكذا مع مرور الأيام تَجِد أنك أنجزت شيئًا عظيمًا، وكتبتَ ما لا يخطر على بالك، ولن تشعر بالملل والسآمة، بل ستشعر بثقة في نفسك، وسهولةٍ في بحثك.

٦ ـ حدِّد الوقت والساعة منذ البداية وحتى النهاية، كي ترى الفارق بين أوائل كتاباتك وأواخرها، فتشعر بأنك كلما مرت عليك الأيام يكون زمن التحضير أقلّ، فتزاد نشاطًا وحماسًا وثقةً.

٧ ـ الكتابة الأولى تكون عاطفيةً وبإسهاب، والمراجعةُ تكون بالعاطفة مع العقل والنظر والتدقيق.

٨ ـ لا تَحمل همًّا للمُؤَلَّف والمقال والخطبة، بل اكتب كتابةً بدون تكلّف واهتمام كبير.

٩ ـ ينبغي أنْ تُدوّن ما يخطر في بالك في أيّ وقت، ولا تقل: إذا ذهبتُ إلى البيت سأدّونها، فسرعان ما تذهب عنك الخواطر المهمة، والقريحة الجيّدة.

وكتابةُ ما في الخاطر مُباشرةً من أهم الأمور، فكثيرًا ما تلوح في الخاطر عبارات جميلة، وخواطر مُهمّة، فإن لم تدوّنْ ذهبت، ولو بقيت صعب تدوين الصيغة المناسبة لها، فمن حين ما تأتي الخاطرة تأتي الصيغة المناسبة والأسلوب الجميل معها، ولذلك فمن أشد ما يخسره من يُفرط في تدوين الخواطر ضياعُ الصيغة المناسبة والأسلوب الرائع لها.

قال العلامةُ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى عند تفسيره لإحدى الآيات:

وَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ فِي مُذَكِّرَاتِي عَنِ الدَّرْسِ عِنْدَمَا تَقَدَّمَ «أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ

نُكْتَةٍ لِهَذَا التَّعْبِيرِ وَهِيَ».. وَتَرَكْتُ بَيَاضًا لِأَكْتُبَ فِيهِ مَا ظَهَرَ لِي مِنَ النُّكْتَةِ ثُمَّ نَسِيتُهُ إِلَى الْآنَ!ا.هـ[1].

وقال أبو الفتح عثمان بن جنيّ: من طريف حديث هذا الخاطِر أنني كنت منذ زمان طويلٍ رأيت رأيًا جمعت فيه بين معنى آيةٍ ومعنى قول الشاعر:

وكنت أمشي على رِجْلين معتدلًا فصرتُ أمشي على أخرى من الشجرِ

ولم أُثْبِتْ حينئذٍ شرحَ حالِ الجمعِ بينهما؛ ثقةً بحضوره متى استحضرتُه، ثم إني الآن ـ وقد مضى له سنون ـ أُعَان الخاطرَ وأفانِيه وأتودّده على أن يسمح لي بما كان أَرانِيه من الجمع بين معنى الآية والبيت، وهو معتاصٌ متآبٌّ، وضَنينٌ به غيرُ مُعْطٍ.ا.هـ[2].

وقد كان الأئمةُ والعلماء والْمُفكرون، يُدوّنون أفكارهم، ويُؤلّفون كتبهم، في أيّ مكانٍ كانوا فيه، فابن تيميّة رَحِمَهُ اللَّهُ ألّف كتابه الصارم المسلول على شاتم الرسول في سجنه.

والشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ ألّف كتابه أضواء البيان في سفر الحج.

ومحمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ ألّف أجزاءً كثيرةً في سفره، حيث يقول في أحد المواضع: «وَلَوْلَا أَنَّنِي الْآنَ حِلْفُ أَسْفَارٍ، لَا يَقِرُّ لِي فِي بَلَدٍ قَرَارٌ، لَأَطَلْتُ بَعْضَ الْإِطَالَةِ».

بل إنّه يُؤلّف ويكتب حتى وهو في الباخرة! يقول رَحِمَهُ اللَّهُ مُعتذرًا عن رجوعه لمصادر التفسير: عَلَى أَنَّنِي كُنْتُ أَوَدُّ لَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيَّ جَمِيعُ كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمُعْتَبَرَةِ لِأُرَاجِعَ تَفْسِيرَ الْآيَةِ فِيهَا.

وذكر في الحاشية أنه يكتب وهو في الباخرة.

---

(١) تفسير المنار: ٥/ ٣٤٤.

(٢) الخصائص، الناشر: عالم الكتب، تحقيق: محمد علي النجار: ١/ ٢٠٧.
أوقفني على كلامه: فضيلة الشيخ: بدر بن محمد الطيار جزاه الله خيرًا.

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَلَّف كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» في السفر وفي حال بعده عن كتبه.

وأَلَّف رسالته «التبوكية» وهو على الراحلة من حفظه، كما في مقدمتها.

قال في مقدمة الكتاب (ص١٢): والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه فإنه علقه في حال بعده عن وطنه وغيبته عن كتبه. ا. هـ.

وألف كتابه زاد المعادِ في هدي خيرِ العِباد وهو في السفر كذلك.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى في كتابه: «ابن قيم الجوزية» (ص٢٦١): ومن المدهش أن هذا الكتاب أملاه مؤلفه رحمه الله تعالى وهو في حال سفره وغيبة عن داره ومكتبته، وقد تحدث عن ذلك في فاتحة الكتاب فقال: وهذه كلمات يسيرة لا يستغني عن معرفتها من له أدنى نعمة إلى معرفة نبيه ﷺ وسيرته وهديه اقتضاها الخاطر المكدود على عُجرهِ وبُجرهِ مع البضاعة المزجاة... مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة والقلب بكل وادٍ منه شعبة والهمة قد تفرقت شذر مذر.... ا. هـ.

وألف كتابه بدائعَ الفوائد وهو في السفر كذلك.

حيث يقول في أحد المواضع: فليسامح الناظر فيها فإنها علقت عليَّ حين بعدي عن كتبي وعدم تمكني من مراجعتها. وهكذا غالب هذا التعليق إنما هو صيد خاطر. والله المستعان.

والإمام الكبير السرخسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أملى جزءًا من كتابه القيّم المبسوط وهو مسجون في الجب!

وهذا الإمام ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُؤلّف أجزاءً من منظومته: «الدرة المضية في القراءات الثلاث المرضية».

وقد صرح بأنّ الأعراب اعترضوا طريقه، ولم يتركوا له شيئًا، وقد قال في آخرها يصف محنته عند ما أسره الأعراب في بلاد نجد:

غَرِيْبَةُ أَوْطَانٍ بِنَجْدٍ نَظَمْتُهَا وَعُظْمُ اشْتِغَالِ الْبَالِ وَافٍ وَكَيْفَ لَا
وَطَوَّقَنِي الأَعْرَابُ بِاللَّيْلِ غَفْلَةً فَمَا تَرَكُوا شَيْئًا وَكِدْتُ لأُقْتَلَا
فَأَدْرَكَنِيْ اللُّطْفُ الْخَفِيُّ وَرَدَّنِيْ عُنَيْزَةَ حَتَّى جَاءَنِي مَنْ تَكَفَّلَا

وهذا العلّامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ ألّف «مختصر صحيح مسلم» وهو في سجن الحسكة.

وهذا العلّامةُ ابنُ الوزير رَحِمَهُ اللهُ يذكرُ أنّ الحافظ ابنَ حجر رَحِمَهُ اللهُ ألَّف أثناء سفره إلى مكّة مختصرًا بديعًا في علوم الحديث (يقصد: نخبة الفكر).

وإلى هذا أشار الأمير الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ في «قصب السُّكَّر» بقوله:

أَلَّفَها الحافظُ في حال السَّفَرْ وهْو الشِّهابُ بنُ عليٍّ بنِ حَجَرْ

فهؤلاء العلماء ألّفوا وكتبوا في السجون والأسفار، وفي البوادي والقفار، وعلى متون البواخر وسْط البحار! فما عذرنا ونحن على الكراسي مُتّكئون، وبين أهلنا مُتنعمون، وفي بلداننا آمنون؟

فمن الذي يَمْنعنا من الجدّ والمثابرة، وثني الركب على القراءة والمدارسة؟

والكسل أساس السقم وضيق الصدر والتأخر للوراء، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولهذا تجد الكسالى أكثر الناس همًّا وغمًّا وحزنًا، ليس لهم فرحٌ ولا سرورٌ، بخلاف أرباب النشاط والجدِّ في العمل أيِّ عملٍ كان، فإن كان النشاطُ في عملٍ هُمْ عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته: كان الْتذاذُهم بحبِّه ونشاطُهم فيه أقوى». اهـ[1].

١٠ ـ أغلق الجوال أثناء التأليف، فإذا قُطعتْ حبال الأفكار فمن الصعب إرجاعها.

---

(١) روضة المحبين: ص١٦٨.

١١ ـ وإذا كان الخطيبُ أو الْمُلقي مُبتدئًا فلا بأس بالاستفادة من غيره، خاصة المتقنين والمجيدين، فيأخذ من خُطبهم، ثم يضعه في ملف وورد، وما يراه لا يُناسب الْمُستمعين فَلْيحذفه، ولْيُضف إليه ما يراه مناسبًا ونافعًا، ومع مرور الأيام يزيد من كلامه وعباراته، حتى يأتي اليوم الذي يُعد فيه إعدادًا كاملًا من عنده بإذن الله.

واستغل شبابك ونشاطك في التأليف والكتابة، فهي مهارةٌ تأتي بكثرة المران والممارسة، فإذا أُهملت صعب تحصيلها، وقد رأينا علماء كبار لا ينشطون للتأليف ولو بالقليل، ولا يُحسنونه ولا يُجيدونه.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأن أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كلال الحواس، وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره؛ وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة؛ لأنه لا يعلم الغيب». اهـ[(١)].

نصائح أوجهها لمن وفقه الله تعالى للخطابة أو الوعظ:

١ ـ اجعل نُصب عَيْنَيْك عامةَ الناس، فهم الأحق والأولى بخطبك ومواعظك، ومتى راعيت نُخَبَهُم وخوَّاصهم، ومُحبيك وطلابك: أدّى بك ذلك إلى عدة محاذير:

الأول: التكلف في اختيار الألفاظ، وتصنع السجع والمواضيع التي تُناسب مستواهم هم دون الأعمّ الأغلب من العامة ونحوهم.

الثاني: حرمان العامة مِمَّا ينفعهم من المواعظ ومُعالجة القضايا الاجتماعيّة؛ لأنك انشغلت بما يهم خواصهم، فهم يرغبون الحديث عن الجديد والغريب، كالسياسة والإغراق في الواقع، ولن ينفعهم ذلك في دينهم ولا دُنياهم.

---

(١) صيد الخاطر: ص٢٦٢.

الثالث: فساد النيّة، فبدلًا من أن تكون خالصةً لوجه الله، أصبحتْ مشوبةً بمراءاة الخاصة ومُحبيك، والنظر إلى ما يُعجبهم ويُرضيهم.

فحينما ترى إعجابَ الناس بخطبك، وتسابُقَهم إلى حضورِها والاستماعِ إليها، لا شكّ أنّ ستراعيهم، وتخطب بما يُرضيهم.

وحينها ينزع الله تعالى منك البركة والقبول، والنفع والفائدة.

والواجبُ عليك أنْ تَخْطُب والعامةُ أهم أهدافك، فهم الذين بأمسّ الحاجة إلى عملك، وهم الذين لن يسمعوا ـ غالبًا ـ إلا منك، أمَّا طلابُ العلمِ فإنْ لم يستمعوا إليك استمعوا من غيرك.

بل إنّ بعضهم يستمع استماع ناقد ومدّقّق، بخلاف العامة، فهم يستمعون استماع متلهف مُنقاد، فأيّ الفريقين أحقّ بالاهتمام والعناية؟

ولا يعني اهتمام الخطيب بنفع العامة ألا يتطرق لمسائل مهمة قد تكون فوق مستوى كثير منهم، والتي يستفيد منها بعض المتخصصين كطلاب العلم أو المسؤولين ونحوهم.

٢ ـ احذر من الإعجاب بمدح الناس لك، فإنّ الناس إذا مدحوا أسرفوا، وأنت أعلم بنفسك!

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: والمحنة العظمى مدائح العوام، فكم غرت![(١)].

٣ ـ أسْمعهم ما ينفعهم في دينهم أو دنياهم، واسْأَلْ نفسك أثناء الكتابة: ماذا سيستفيد الناس في دينهم وأخلاقهم إذا خرجوا من المسجد، أو قرؤوا المقال الذي كتبته؟

ماذا سيستفيد الناس من الكلام في السياسة مثلًا، أو الإكثار من الحديث عن مآسي المسلمين ومُصابهم؟

---

(١) صيد الخاطر: ص٦٧.

٤ ـ احرص على كتب الأدب والبلاغة والشعر، فإنّ الخطيب أحوج ما يكون إليها، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «الواعظُ مأمورٌ بألا يتعدى الصواب، ولا يتعرض لِمَا يُفْسدهم، بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه، وهذا يحتاج إلى صناعة، فإنَّ مِن العوام من يعجبه حسن اللفظ، ومنهم من يعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر، وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ، ليجمع مطالبهم ـ أي: العوام ـ» .اهـ[(١)].

٥ ـ احذر من الإطالة في الخطبة، فقد كان النبي ﷺ يُقصّرها، وكذلك فعل أصحابُه ومنْ جاء بعدهم.

قيل لأياس بن معاويةَ: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام، قال: فتسمعون صوابًا أم خطأً؟ قالوا: بل صوابًا، قال: فالزيادة من الخير خير!

قال الجاحظ مُسْتدركًا عليه: «وليس كما قال، للكلام غايةٌ، ولنشاط السامعين نهاية، وما فَضُل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل وهو الإسهاب الذي سمعتُ الحكماء يعيبونَه» .اهـ[(٢)].

وما أجمل قول القائل: «قليلٌ يُوعى، خيرٌ من كثيرٍ يُنْسى».

وقصر الخطبة فيه ثلاث فوائد نفيسة:

الأولى: اتباع السُّنَّة.

الثانية: سهولةُ تحضير الخطبة، وحصولُ الراحة النفسية عند تحضيرها، وأثناء إلْقائِها، وبعد الفراغ منها.

الثالثة: التخفيف على المستمعين، فيكاد يتفق الناس جميعهم على الارتياح للذي يقصر خطبته، والنفرة ممن يُطيلها.

---

(١) صيد الخاطر: ص١٣٨.

(٢) البيان والتبيين: ص٧٠.

٦ ـ تجنّب الوحشي والغريب من الكلام والسجع، فقد نهى عنه الشرعُ الحكيم، والأدباءُ والبلغاءُ المعتبرون.

قال إبراهيم بن المهدي لعبد الله بن صاعد كاتبه: إياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعًا في نيل البلاغة؛ فإن ذلك هو العي الأكبر، عليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل[١].

وقال ابن رشيق: «إذا كانت اللفظة خشنة مستغربة: لا يعلمها إلا العالم المبرز، والأعرابي القح؛ فتلك وحشية، وكذلك إن وقعت غير موقعها، وأتى بها مع ما ينافرها، ولا يلائم شكلها».اهـ[٢].

وصدق القائل:

إنْ كان في الْعِيِّ آفاتٌ مُقَدَرَةٌ   ففي البلاغة آفاتٌ تُسَاوِيْها

٧ ـ اجتنب السرد المعتاد للخطبة، بل اهتمّ بمستوى نبرات الصوت حسب الموضع اللائق به، واعتن بالوقف المناسب.

وبالجملة كن حريصًا على الاستفادة من كتب وأشرطة فنّ الإلقاء والخطابة.

ومن لم يعتن بذلك سيكون أسلوبُه ضعيفًا، وحديثُه غير جاذبٍ وغير مُؤثِّرٍ ـ غالبًا ـ.

٨ ـ الخوف ـ لاسيّما في البداية ـ أمرٌ طبيعيٌّ جدًّا، بل هو إيجابيّ يُساعد على العناية بالخطبة والتحضير لها.

لكنّ اسْتمرار الخوف في كلّ خطبةٍ ولمدّةٍ طويلةٍ أمرٌ سلبيٌّ، ينبغي اتخاذ الأسباب في التخلّص منه، ومنها:

أ ـ الحرص على مشاهدة الناس، والحديث أحيانًا ارتجالًا، ولو

---

(١) العمدة لابن رُشيق: ١/ ٢٠٢.

(٢) العمدة: ١/ ٤٤.

رأيت صعوبةً في البداية، وأخطاءً وتردّدًا، فاستمرارك على عدم الخروج عمّا في الورقة، وعدم النظر للجمهور بجرأةٍ يُفقد السامعين الحماس لكلامك، ويجعلك تستمر على الخوف والوجل من المنبر.

وقد صرّح لي بعض الخطباء الذين لهم سنوات في الخطابة، ولكنهم لا يخرجون عمّا في الورقة ولا ينظرون للجمهور، بأنهم يجدون الخوف والقلق عند كلّ خطبة، بل ويقول: إنني في كلّ خطبةٍ كأنني لِأَول مرّةٍ أخطب، من الهم والوجل!

ب ـ شرب بعض الأشربة المهدّئة قبل الخطبة، كالنعناع ونحوه، فله أثرٌ في تسكين القلق والخوف.

ج ـ توطين النفس على سماع النقد، والفرح بذلك؛ ليكون سُلّمًا للتقدّم والإبداع، وعدم الخوف من الخطأ.

فالذي يستمر معه الخوف والقلق قد يكون من أعظم أسبابه خشية وقوعه في الخطأ، ونفرته من النقد.

د ـ الحضور مُبكرًا، فلا شك أنّ الخطيب الذي يأتي مُسرعًا ليتدارك الوقت سيثور نفسُه، ويضطرب فُؤاده، وينتابُه قلقٌ وحرجٌ يدوم حتى أثناء الخطبة.

٩ ـ زمن التحضير للخطبة يختلف حسب ثقافة وعلميّة الخطيب، وعلى حسب المادة التي سيلقيها، فلا تخلو المادةُ من نوعين:

الأول: أنْ تكون علميّةً، كالمسائل الفقهية أو العقدية وتأصيلها، فهذه يجب أنْ تُعطى زمنًا يليق بمقامها، ولا ينبغي الاستهانة بها، وتحضيرها قبل الخطبة بساعات قليلة.

الثاني: وعظيةً أو اجتماعية ونحوها، فهذه لا بأس بتحضيرها ولو يوم الجمعة.

ونصيحتي للمستجد في الخطابة ـ ممن لم يملك الخبرةَ الكافية،

والعمليّة الناضجة ـ: أنْ يستفيد في البداية مِن خطب مَن سبقه، **ويكون الذي يستفيد منه تتصف خطبه بثلاث صفات:**

الأولى: أنْ تكون قصيرةً، حتى لا يشق عليه إلقاؤها.

الثانية: أنْ تكون سليمةً نحويًّا وعلميًّا.

الثالثة: أنْ تكون بعيدة عن التكلف لفظًا ومضمونًا.

ولا بأس مع مرور الأيام أنْ يُعَدِّل أو يزيد ما يراه مُناسبًا، ثم يُحاول بعد ذلك أنْ يكتب الخطبة بنفسه، مستفيدًا مِمَّن سبقه.

١٠ ـ تجنب الألفاظ التي فيها أوامر للسامعين دون المتحدّث، مثل: افعلوا أو لا تفعلوا، واستعمل بدلها: لنفعل، ولنترك، ونحو ذلك، فهذه الصيغة تُشعر السامعين بتواضعك، وبحبّك الخير لهم كما تُحبّه لنفسِك، وأنك لست فوقهم لا دينًا ولا خُلُقًا.

١١ ـ لا تقلد خطيبًا مُعيّنًا في أُسلوبِه أو مادّته، فقد يُناسبه ما لا يُناسبك، والتقليد يُفسد إبداعك ومواهبك، فاخطب حسب ما أعطاك ربّك من قدرات ومواهب وعلم.

أما بالنسبة للمستجد على الخطابة، فلا بأس بأنْ يستفيد من غيره أسلوبًا ومادّةً، ولكن ينبغي ألا يكون نسخةً منه، بل يجعله عونًا له على الرقي بنفسه.

١٢ ـ لا تحزن لقلّة الحضور عندك، ولا تفرح بكثرتهم.

واعلم أنّ النفس ترغب في كثرة المستمعين والحاضرين، وخاصة من أقاربك وأصدقائك، وربما سألت عن حضورهم، أو عاتبت ـ ولو بقلبك ـ على عدم حضور أحدهم، فجاهد نفسك على التخلص من هذا الداء، فعدم حضوره عندك لا يعني بأنك ضعيف، بل لأنه يجد الراحة والفائدة عند الخطيب الآخر، أو لقربه من بيته، أو لأسبابٍ أخرى.

١٣ ـ عليك بالاهتمام بالخطبة تحضيرًا واسْتعدادًا، واحذر من أنْ تُداوم على أخذ خطب غيرِك، فقد يُرخَّصُ لك في البداية، لكن لا عذر لك بعد كثرة المراس والخبرة والتجربة.

والتحضير الجيد من ألذّ الأمور عند الخطباء، بل إنهم يتشوقون ليوم الجمعة لطرح ما كتبوا وتعبوا عليه.

وأما المداومةُ على عدم التحضير، والاكتفاء بخطب الآخرين، ففيه سلبيّاتٌ كثيرةٌ منها:

أولًا: أنها تُسبب ضعف الهمة، وخور العزيمة، ومهانة النفس، حيث تكتفي بتقليد الآخرين، وتدفن إبداعاتك، وتقتل مواهبك.

ثانيًا: أنّها تُفقدك الحماس والنشاط واللذة، فتُصبح كأنها همٌّ تُريد إزاحته عنك، ويُؤثر هذا على أُسلوبك وقبول الناس لك.

ثالثًا: أنّ الكثير من الناس يُحسُّون بأنّ الخطيب لم يُحضر الخطبة بنفسِه، وإنما نقلها عن غيرِه، وذلك لاختلاف أسلوب ومادّة الخطبة عن أسلوبه ومُسْتواه، فلا تكون للخطب قبولٌ واهتمام عندهم.

رابعًا: أنك لن تنتفع منها، فالعمل الذي لا يجتهد فيه صاحبه تحضيرًا وإعدادًا سرعان ما يُنسى ويتلاشى.

فلذلك لن تتقدّم، ولن يزداد طموحُك، وتعظم همَّتُك، ويُنتفع من علمك ـ إلا ما شاء الله ـ.

ولذلك انظر إلى الخطبة التي حضرتها جيّدًا، تجد أنك لن تنساها، ولو رجعت إليها بعد عشر سنوات، فإنك تعلمُ ما فيها، وكأنك ألقيتها قريبًا.

أما الخطب التي نقلتَها عن غيرك فسرعان ما تنساها، وجرب ذلك، ارْجع إلى الخطبِ التي مضى عليها أربع أو خمس سنوات، ستجد نفسك نسيتها أو تكاد تستذكر جزءًا يسيرًا مما جاء فيها.

ولن تنتفع بها أيضًا بجمع مادتها لتكون كتابًا يُنتفع به، أو تفتح لك بعضُ العناوين فكرةً لِمُؤلّفٍ ينتفع الناس منه.

وكم كتابٍ انتفع الناس منه كان سببُه خطبةً ألقاها صاحبُها، فكثيرٌ من الكتب والمؤلَّفات إنما هي خطبةٌ أعدّها إعدادًا جيّدًا فلاقت قبولًا واسْتحسانًا، فجعلها مُؤلّفًا انتفع منه الكثير من الناس.

١٤ ـ حضِّر للخطبة وكأنك ستخرجها في كتاب، فخرِّج الأحاديث وبيّن درجة صحّتها بالاستعانة بكلام بعض المحدثين، ووثق مراجع المصادر التي رجعت إليها، واهتم بها نحويًّا وإملائيًّا ولغويًّا.

١٥ ـ اهتمّ بعلامات الوقف والترقيم من الفواصل ونحوها، واجعل لك علاماتٍ خاصَّةً تقف عندها مُراعاةً لِنَفَسِك، حتى لا تُحرَج بكثرة الوقوف عند أماكن غيرِ مُناسبة.

مثال ذلك: عالي الهمةِ يُرى منطلقًا بثقةٍ وقوةٍ وإقْدام نحو غايتِه التي حدَّدَها على بصيرةٍ وعِلْم.

هذه الجملة قد تكون طويلةً على بعض الخطباء، فيصعب عليه نطقها كلها بنفَسٍ واحد، فالأولى له أنْ يضع فاصلةً ـ ولو بخط يده ـ على مكان يقف فيه مُراعاةً لِنَفَسِه.

فيفعل هكذا: عالي الهمةِ يُرى منطلقًا بثقةٍ وقوةٍ وإقْدام، نحو غايتِه التي حدَّدَها على بصيرةٍ وعِلْم.

١٦ ـ نوّع طرح الموضوعات، ولا تقتصر على نمطٍ واحد، كأنْ تكون خطبك عن أحوال القلوب، أو عن أمور الأمة العامة، أو نحو ذلك.

بل كن كثيرَ التنويع؛ لتبعث في نفوس الناس الشوق إلى خطبك.

١٧ ـ أولى الناس باكتساب مهارات وفنون الإلْقاء الخطيبُ، حيث

إنّ الخطيب يحتاج إلى اقناع الناس، وشدّ انتباههم، كي يستمعوا ويتقبلوا ما يقوله لهم.

والخطيب صاحب الأسلوب القوي، والإلْقاء البديع ينتفع به الناس ـ غالبًا ـ أكثر ممن لا يتميّز بذلك، ولو كان أكثر علمًا، وأعلى منصبًا.

فينبغي أنْ يحضر دوراتٍ في فنّ الإلْقاء، أو يقرأ الكتب الْمَعنيّة بذلك، أو الاستماع إلى مثل هذه البرامج الهادفة النافعة.

١٨ ـ لا ينبغي الالْتزام بصيغةٍ معيّنة إلا ما ثبت بالسُّنَّة الصحيحة، ومع ذلك فالسُّنَّة ترك السُّنَّة أحيانًا؛ لئلا يعتقد الناس وجوبها، فكيف بالْتزام ما لم يثبت شرعًا!

* * *

نصائح لطالب العلم الذي يرغب في التأليف والكتابة:

هل تُريد تصنيف أكثر من كتاب، وكتابةَ عشرات المقالات أو الخطب في أقلّ من عام؟

إنّ هذه الأمنية ليست مُسْتحيلة ولا صعبة بإذن الله تعالى، **وهي تحتاج منك إلى أربعة أمور:**

الأول: كثرة القراءة والإطلاع.

الثاني: كثرة التأمل والتفكر فيما تقرأ، وفيما تُشاهده في الواقع.

الثالث: تدوين الفوائد التي تمر بها، والخواطر التي تخطر ببالك.

الرابع: تنظيم كتابتها وفهرستها.

وإليك التفصيل:

عندما تقرأ كتابًا، وتمرّ على كلامٍ أعجبك، أو فائدةٍ علميةٍ أو تربويَّة: اقْتبسها ودوّنها في كرّاسةٍ أو ملف وورد ـ وهو الأفضل ـ

واجْعلها موضوع خطبةٍ لك ـ إنْ كنت خطيبًا ـ، أو مقالٍ لك تَنشره في وقته أو فيما بعد، أو مادّةً لكتابٍ تُؤلّفه، وعلّق عليها بما يجول في خاطرك إنْ أمكن ـ.

فعند قراءتك وإعجابك بما قرأته تنشط النفس وينشط العقل للتعليق عليه، وجمعِ ما يَعضدُ ما قرأتَه، فلن تَندم على ذلك أبدًا، وهي فرصةٌ يصعبُ تكرارها بعد ذلك ـ كما تقدّم ـ.

ومع مرور الأيام وتزايدِ المقالاتِ والْمُختصرات والمذكرات، وتنوعِ العناوين لكلِّ واحدٍ منها: تَجد نفسك قد اعتادت على التأليف والكتابة، وتَجد عندك بحوثًا ومقالاتٍ كثيرةً، لو أخرجتَها لعمَّ نفعُها، وذاع صيتُها.

وبهذه الطريقةِ تستطيع تأليف عدّة كتب، وكتابة عشرات الخطب، أو المقالات النافعة، في أقلّ من سنة.

فما عليك إلا تنظيم الفوائد التي تحصل عليها، والخواطر التي تخطر ببالك وتُدوّنها، ثم اجعل كلّ فائدةٍ وخاطرة في ملف وورد خاصٍّ بها، وهكذا تمضي الأيام وإذا بالملفات قد امْتلأت، وتبقى عليك ترتيبُها، والعنايةُ بها بحثًا واسْتدلالًا.

فمثلًا: إذا مرّت بك فائدةٌ نفيسةٌ، أو حكمةٌ، أو بيتُ شعرٍ، أو خاطرةٌ عن التواضع، فقم مُباشرةً بتدوينِها بملف وورد، وسمّه: خلق التواضع، وكُلَّما مرّت بك فائدةٌ أو آيةٌ أو حديثٌ أو خاطرةٌ تتعلق بهذا الموضوع فدوّنها.

وهكذا إذا مرت بك فائدةٌ ونحوها عن تربية الأبناء، والصبر، والقناعة، وغيرها من الموضوعات، سواءٌ في الكتب، أو في المجلات والصحف، أو في الجوال عبر الرسائل التي تأتيك، وخاصَّةً في

الْمَجموعات العلميّة التي تضمّ عدة أشخاصٍ، فدوّنها في ملفٍّ خاصٍّ بها.

ولن يَنْتَهي عامُك بتوفيق الله وعونِه ـ إنْ كنت جادًّا ومُنظّمًا ـ إلا وقد كتبت مئات الصفحات النافعة المفيدة، التي تُكوّن منها مُؤلّفًا مُفيدًا، وخطبًا نافعة، ومقالاتٍ جيدة.

وأعرف ـ غيرَ واحدٍ ـ قام بهذه الطريقة ففُتح له فتحًا عظيمًا، وكتب من البحوث والكتب ما لم يخطر له على بال.

ولعل هذا هو سرّ كثرة تأليف بعض المشايخ المعاصرين، حيث إنهم يُخرجون عشر مُؤلَّفات أحيانًا في عامٍ واحد.

وقد كان هذا ديدن العلماء السابقين واللاحقين، قال العلامة الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «حلية طالب العلم»[(١)]:

«ابذُلِ الجُهْدَ في حفظ العلم حفظَ كتاب؛ لأنَّ تقييدَ العلم بالكتابةِ أمانٌ من الضيَّاعِ، وقَصْرٌ لمسافةِ البحث عند الاحتياجِ، لا سيَّما في مسائلِ العلمِ التي تكونُ في غير مظانِّها، ومن أَجلِّ فوائده أنَّه عند كِبَرِ السنِّ وضَعْفِ القوى، يكون لديك مادَّةٌ تَسْتَجِرُّ منها مادَّةً تكتبُ فيها بلا عناءٍ في البحث والتقصِّي.

ولذا فاجعل لك «كُنَاشًا»، أو «مُذَكِّرة»، لتقييدِ الفوائدِ، والفرائدِ، والأبحاثِ، المنثورةِ في غيرمظانِّها، وإنِ استعملتَ غلافَ الكتابِ لتقييدِ ما فيه من ذلك؛ فَحَسَنٌ، ثم تنقُلُ ما يجتمعُ لك بَعْدُ في مذكِّرة مرتبًا له على الموضوعاتِ، مُقَيِّدًا رأْسَ المسألة، واسْمَ الكتابِ، ورقمَ الصفحة والمُجَلَّد، ثم اكْتُب على ما قَيَّدْتَهُ: «نُقِل»، حتى لا يختلطَ بما لم يُنْقَل،

(١) ص١٧٥ ـ ١٧٦.

كما تكتبُ: «بَلَغَ صفحة كذا» فيما وَصَلْتَ إليه من قراءةِ الكتاب، حتى لا يفوتَك ما لم تبلُغْه قراءةً.

وعليه فَقَيِّدِ العلمَ بالكتاب، لا سيَّما بدائعَ الفوائدِ في غير مظانِّها، وخَبَايا الزوايا في غير مساقِها، ودُرَرًا منثورةً تراها وتسمعُها تخشى فواتها، وهكذا؛ فإنَّ الحفظَ يضعُفُ، والنِّسيان يَعْرِضُ.

وإذا اجتمع لديك ما شاء اللهُ أن يجتمعَ فَرَتِّبْه في: «تذكِرة»، أو «كُنَاش» على الموضوعاتِ، فإنَّه يُسْعِفُك في أضيقِ الأوقاتِ، التي قد يَعْجَزُ عن الإدراكِ فيها كبارُ الأثباتِ».اهـ.

وقال ابن عقيل الحنبلي في مقدمة كتابه: «الفنون» الذي طُبع منه مجلدان: «فما أزال أُعَلِّق ما استفيد من ألفاظ العلماء، ومن بطون الصحائف، ومن صيد الخواطر التي تنثرها المناظرات والمقابسات في مجالس العلماء ومجامع الفضلاء».اهـ.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة كتابه «صيد الخاطر»: «لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها، ثم تعرض عنها فتذهب، كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى.

وكم قد خطر لي شيءٌ فأتشاغل عن إثباته فيذهب، فأتأسف عليه.

ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكر، سنح له من عجائب الغيب، ما لم يكن في حساب، فانثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيدًا لصيد الخاطر».اهـ.

تأمل قوله: «كلما فتحتُ بصر التفكر سنح له من عجائب الغيب ما لم يكن في حساب»! وهذا مُجرّب وواقع، فكلّما سمحت لفكرك بالتأمل ثم دوّنت ذلك فُتح لك من اللطائف والعجائب.

ومن أمثلةِ كتب الفوائد والخواطر: «بدائع الفوائد»، و«الفوائد»

لابن القيم، و«مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» للشيخ عبد الرحمٰن السعدي و«كناشة النوادر» للأستاذ عبد السلام هارون، و«المنتقى من فرائد الفوائد» للشيخ محمد العثيمين، وكتاب «القلائد من فرائد الفوائد» لمصطفى السباعي وغيرها كثير، فهؤلاء لم يُؤلّفوها في جلسةٍ واحدة، بل كانوا يكتبون ما يجول في خواطرهم، وما يُدوّنونه من الفوائد على مرّ الأيام، فاجتمعت عندهم مادّة قابلةٌ للنشر فنشروها، وانتفع منها بشرٌ كثير.

قال العلامة: محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتابه: «فرائد الفوائد»: «كنت أقيّد بعض المسائل الهامة، التي تمر بي ـ حرصًا على حفظها، وعدم نسيانها ـ في: «دفتر»، وسميتها: «فرائد الفوائد». وقد انتقيت منها ما رأيته أكثر فائدة، وأعظم أهمية؛ وسمّيت ذلك: «المنتقى من فرائد الفوائد»». اهـ.

وقال العلامة مصطفى السباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في مقدمة كتابه: «القلائد من فرائد الفوائد»: «كان دأب طلاب العلم ـ ولا يزالون كذلك ـ أن يقيدوا ما يجدونه من فوائد متناثرة، خلال مطالعاتهم، في أوراق خاصة، يرجعون إليها عند الحاجة لها، وقد كان مما يوصي به علماؤنا طلابَهم: «قَيِّدُوا العِلْمَ بالكِتابِ».

ودرجتُ على ذلك منذ طلبي للعلم، فتجمع لي من ذلك قدر كبير ضاع أكثره في سنوات من السفر والسجن والمرض، وقد كنت بما جمعت حفيًا، وعليه حريصًا». اهـ.

ومن الأمثلةِ كذلك: كتاب «الموافقات» للشاطبي، هذا الكتاب الضخم العجيب، الذي يتكلم عن مسائل دقيقةٍ وصعبةٍ، تتعلّق بأصول الفقه ومقاصد الشريعة، والأدلة الشرعيّة، وأحكام الاجتهاد والتقليد، إنما

ألّفه بهذه الطريقة التي ذكرتُها، قال رحمه الله تعالى في المقدمة[١]: «لَمَّا بَدَا مِنْ مَكْنُونِ السِّرِّ مَا بَدَا، وَوَفَّقَ اللهُ الْكَرِيمُ لِمَا شَاءَ مِنْهُ وَهَدَى، لَمْ أَزَلْ أُقَيِّدُ مِنْ أَوَابِدِهِ، وَأَضُمُّ مِنْ شَوَارِدِهِ..

ثُمَّ اسْتَخَرْتُ اللهَ تَعَالَى فِي نَظْمِ تِلْكَ الْفَرَائِدِ، وَجَمْعِ تِلْكَ الْفَوَائِدِ، إِلَى تَرَاجِمَ تَرُدُّهَا إِلَى أُصُولِهَا، وَتَكُونُ عَوْنًا عَلَى تَعَقُّلِهَا وَتَحْصِيلِهَا؛ فَانْضَمَّتْ إِلَى تَرَاجِمِ الْأُصُولِ الْفِقْهِيَّةِ، وَانْتَظَمَتْ فِي أَسْلَاكِهَا السَّنِية الْبَهِيَّةِ؛ فَصَارَ كتابًا».اهـ.

فكتابةُ الخواطر وتدوين الفوائد أمرٌ ضروريّ لطالب العلم، قال المسعودي: ولولا تقييدُ العلماء خواطرَهم على الدهر لبطل أوَّل العلم، وضاع آخره؛ إذ كان كلُّ علمٍ من الأخبار يُستخرج، وكلُّ حكمةٍ منها تستنبط، والفقه منها يُستثار، والفصاحةُ منها تستفاد، وأصحابُ القياس عليها يبنون، وأهلُ المقالات بها يحتجون، ومعرفةُ الناس منها تؤخذ، وأمثالُ الحكماء فيها تُوجد، ومكارمُ الأخلاق ومعاليها منها تُقتبس، وآدابُ سياسةِ الملك والحزم منها تُلْتَمس، وكلُّ غريبةٍ منها تُعرف، وكلُّ عجيبةٍ منها تُسْتَطْرف، وهو علمٌ يَسْتمتع بسماعه العالمُ والجاهل، ويَسْتعذبُ مَوقعه الأحمق والعاقل، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصيُّ والعاميُّ، ويميلُ إلى رواياتِه العربيُّ والعجميُّ.اهـ[٢].

وأنا أجزم أنّ كلّ طلاب العلم يُدوّنون الفوائد التي يمرّون بها، فمُستقلٌّ ومُستكثر، **ولكن ينقصهم أمران:**

الأول: تدوين خواطرهم وما يُفتح عليهم.

---

(١) ص١٤.

(٢) مروج الذهب: ص١٩٦.

الثاني: عدم تنظيم وترتيب هذه الفوائد والخواطر، فتجد الواحدَ منهم عنده مئات الفوائد، ولكنها مُبعثرةً.

فنصيحتي لأحبتي طلاب العلم أنْ يَبْدؤوا من اليوم بالسير على ما ذكرتُه آنفًا، وسيرون النشاط يدبّ في أجسادهم، وسيعتادون على التأليف والكتابة، وتكون سهلةً غير مُكْلفة.

ومن أعظم ثمرات هذه الطريقة:

١ ـ سرعةُ وسهولةُ اقتباس ما دوّنتَه عند حاجتك إليه، ممَّا يُسهِّلُ عليك الكتابة، ويختصر لك الوقت.

٢ ـ فهم ما قرأته من الكتب فهمًا جيّدا، واسْتيعابُه واسْتحضاره.

٣ ـ القدرة على الكتابة والتأليف؛ وذلك لكثرة تعليقاتك على الكتب التي تقرؤها، ومع الأيام ستجد أنّ الكتابة والتأليف من أسهل الأشياء.

٤ ـ الثقةُ بالنفس، والاستقلالُ وعدمُ الجمود في التقليد، وذلك لأنه سيكتب ما يراه صوابًا وحقًّا، وهو إنما يكتب ذلك في بداية الطالب لنفسه، ولن يعرضه للناس وأهل العلم.

قال العلّامةُ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦]: «يُوشِكُ أَنْ يَدْخُلَ اللَّقِيطَ فِي مَعْنَى «ابْنِ السَّبِيلِ».. وَإِنَّمَا غَفَلَ جَمَاهِيرُ الْمُفَسِّرِينَ عَنْ ذِكْرِهِ لِنُدْرَةِ اللُّقَطَاءِ فِي زَمَنِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْهُمْ، وَلَا حَظَّ لِلْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ مِنَ التَّأْلِيفِ إِلَّا النَّقْلَ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الْغَالِبِ قَدْ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الِاسْتِقْلَالَ فِي الْفَهْمِ؛ لِئَلَّا يَكُونَ مِنَ الِاجْتِهَادِ الَّذِي تَوَاطَؤُوا عَلَى الْقَوْلِ بِإِقْفَالِ بَابِهِ، وَانْقِرَاضِ أَرْبَابِهِ، وَالرِّضَا بِاسْتِبْدَالِ الْجَهْلِ بِهِ، فَإِنَّ غَيْرَ

الْمُسْتَقِلِّ بِفَهْمِ الشَّيْءِ لَا يُسَمَّى عَالِمًا بِهِ كَمَا هُوَ بَدِيهِيٌّ، وَعَلَيْهِ إِجْمَاعُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ». اهـ[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمُقَلِّدُونَ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ اسْتِعْمَالِ أَشْرَفِ النِّعَمِ الْغَرِيزِيَّةِ وَهُوَ الْعَقْلُ، وَحَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَفْضَلَ الْفَضَائِلِ الْكَسْبِيَّةِ وَهُوَ الْعِلْمُ وَالْفَهْمُ». اهـ[2].

وغَيْرُ الْمُسْتَقِلِّ بِفَهْمِ الشَّيْءِ لَا يُسَمَّى عَالِمًا بِهِ بإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، وما نراه من ضعف كثيرٍ من طلاب العلم إنما سببُه عدمُ الاستقْلال ـ المحمود ـ، والرّهبةُ من إبداء الرأي، والبحث والترجيح بنفسه.

ولو سأل الواحد منَّا نفسه هذا السؤال: كم قضيت من عمرك في قراءة الكتب ومطالعتها؟ لربما أجاب بعضنا: مرّ عليّ عشر سنوات، بل بعضهم تجاوز الخمس عشرة سنة!.

فهل هذه السنوات الطويلة كوَّنت لصاحبها طالبَ علمٍ راسخٍ، واثقٍ بنفسه مُؤصَّلٍ؟، أم كوَّنت مُثقَّفًا ثقافةً ضحلة، يأخذ من كلّ فنٍّ أيسره وأسهله، يقرأ كتابًا فإذا اسْتصعبه تركه وهجره؟

وهل تكوَّنت لأحدنا ملكةٌ في إعداد كلمةٍ أو مقالٍ أو خطبةٍ؟ بل لو طُلب من كثيرٍ من أصحاب القراءة والمطالعة إعدادَ خطبةٍ لتلكَّأ واسْتصعب الأمر، ولو طُلب منه إعداد كلمةٍ ـ دون إلقائها ـ لجلس مُدَّةً في إعدادها، فكيف له أن يُؤلف كتابًا نافعًا، أو يكون خطيبًا مِصْقعًا؟

* * *

(١) تفسير المنار: ٥/ ٨٢.
(٢) تفسير المنار: ٧/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

وفي الختام ـ يا طالب العلم ـ خذ هذه العلامات التي متى ما وجدتها مُتحققةً فيك، فاعلم أنك قد سَلَكت الجادة في طلب العلم، وأنك تسير على منهجيَّةٍ راسخةٍ صحيحة، ومُؤدِّيةٍ لرسخوك بإذن الله تعالى، **منها**:

أ ـ حرصُك على وقتك حرصًا مُنقطع النظير، بحيث تتحسَّر على ضياع الدقائق بلا فائدةٍ كبيرة.

ب ـ قدرتُك على البحث بنفسك، وتمكنك من معرفة الراجح بدليله، وإكثارُك من البحث.

ج ـ كثرةُ قراءتك واطّلاعك وفق منهجيَّةٍ مُحْكَمة، واسْتشارةٍ لمشايخك.

د ـ أنْ تكون عندك ثقةٌ بنفسك[(١)]، وشجاعةٌ محمودة، وبُعدُك عن جَلْدِ الذات التي تُصيب بالإحباط والفتور.

هـ ـ أنْ تستمتع بالجلوس مع الكتب أكثر من اسْتمتاعِك في الجلوس مع الناس، وحتى مع طلاب العلم، بل تصل إلى المرحلة التي قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنها: «وأمّا عُشّاق العلم فأعظم شغفًا به وعِشقًا له من كلِّ عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر».اهـ[(٢)].

---

(١) الثقة بالنفس تعني إحْساسَك وشُعورَك بما أنْعم الله تعالى به عليك من الصفات الحسنة، والْمواهب الطيّبة، والعمل من خلالها على ما ينفعك وينفعُ الآخرين، فإن أخطأتَ في استخدامها وقعتْ في أحد محذورين:
١ ـ الغرور والعجبُ، وذلك إذا بالَغْتَ في الثقة بنفسك، بحيثُ تَضْعُفُ عندك الثقةُ بالله وحده، وتطغى عليك الاعتمادُ على مواهبك والتَّفاخرُ بها، فيقودُك ذلك إلى تهميش الْمُخالفين والقدحِ بهم.
٢ ـ الفتورُ والْمهانةُ، وذلك إذا بالَغْتَ في نزعِ الثقة من نفسك، وعدمِ الاعتدادِ بِمَواهبك، وإحسانِ الظنّ بقدراتك وصفاتك، فيقودُك ذلك إلى ضعفَ الهمّة، والخوفِ الْمُفرط من النقد والخطأ، وعدمِ نفع الآخرين بحجةِ عدمِ الأهليّة لذلك!.

(٢) روضة المحبين: ص٦٩.

ولا يعرف قيمة الصدق إلا الصادقون، ولا قدر الشجاعة إلا الشجعان، ولا حقائق الحكمة إلا الحكماء، فكذلك لن يعرف قدر العلم ويشعر بقيمته ولذّته إلا العلماء، أو من سار على منهجهم وطريقتهم.

واعلم أن صحة المنطلق هي الأساس للوصول إلى المسار الصحيح في العلم والتعلم، والقاعدة تقول: «مَن صحت بدايته استقامت طريقته وصحت نهايته، ومن فسدت بدايته اعوجَّت طريقته وساءت نهايته».

وقد لخَّص الشافعيّ ـ رحمه الله تعالى ـ لك أسباب نيل العلم، ورسوخك فيه فقال:

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

واعلم أنَّ كلّ شيءٍ ثمينٍ لا بدّ في حصولِه من بذل الغالي والنفيس، كبذل المال، والوقت، والجهد والتعب، والتضحيةِ في أشياء اعْتَدَتّ عليها.

والعلم لا يُنال براحة الجسم، وإنما يُنال بالتعب والعناء، والسهر لنيله، كما قال ابن عبد القوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولا تسأمَنَّ العلمَ واسْهر لنيله بلا ضجرٍ تُحْمَدْ سَرى السير في غدِ

وكما قيل: «أعط العلم كلَّك يأتك بعضُه، وأعط العلم بعضَك يَفُتْك كُلُّه»، فالعلم ليس بالأمر الهيِّن، العلم يحتاج إلى مثابرة، ومُصابرة، والذي لا تدركه أول مرة تدركه في ثاني مرة»[(١)].

«واعلم أنّ نفسَك بمنزلة دابّتك، إنْ عرَفتْ منك الجدّ جدّت، وإنْ

---

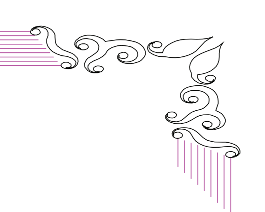
(١) الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى، في افتتاحية شرح العقيدة الواسطية، الشريط الأول.

عرفتْ منك الكسل طمعت فيك، وطلبتْ منك حظوظَها وشهواتها»[١].

وليس المهم كم قرأتَ، ولكن المهم: ماذا استفدتَّ، فأصْحاب القراءة والْمُطالعة كُثر، والمستفيدون من القراءة فائدةً تعود عليهم وعلى أُمَّتهم بالنفع قليلٌ جدًا.



(١) الجامع الْمُنتخب لابن رجب: ص١٩٧.

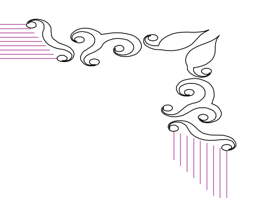


الخاتمة

نسأل الله تعالى أنْ ينفع بنا الإسلام والمسلمين، وصلى الله على نبيِّنَا محمد وآله وصحبه.

والحمد لله رب العالمين



الفهرس